وراء الفردوس

وراء الفردوس
(رواية)

منصورة عز الدين

الطبعة الرابعة – ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥

WWW.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفي إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٩/١٠٧٠٧

I.S.B.N : 978 - 977 - 6231 - 97 - 9

وراء الفردوس

(رواية)

منصورة عز الدين

مكتبة مصر العامة

دار العين للنشر

مكتبة مصر العامة - الرئيسية
800103191

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عز الدين، منصورة.

وراء الفردوس: رواية/ منصورة عز الدين.

ط ١ - الاسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٠٩

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٣١ ٩٧ ٩

١- القصص العربية

أ- العنوان ٨١٣

رقم الإيداع / ١٠٧٠٧ / ٢٠٠٩

إلى روح أمي.
إلى ياسر ونادين.

-١-

كنمرة هائجة نزلتْ سلمى رشيد درجات سلالم بيتهم الثماني، يتبعها خادم يرزح تحت ثقل الصندوق الخشبي الضخم الذي يحمله. وقفتْ في منطقة جرداء بالفناء الخلفي للبيت الذي فقد كثيرًا من رونقه، وأشارتْ بيدها فوضع الخادم حمولته على الأرض، ومسح العرق والتراب عن وجهه. بدتْ غير مهتمة بالحر القائظ الذي نفثته تلك الظهيرة الأغسطسية، و لم تنتبه للثعبان الأسود الذي أطل برأسه من بين كومة القش القريبة قبل أن يختفي بداخلها من جديد، ولا للفأر الرمادي السمين الذي مرق بسرعة هاربًا من المشهد الذي احتلته هي. على مقربة اختفتْ حرباء مشاكسة بين أوراق العنب المتدلية عناقيده بزهو من التكعيبة المدهونة بلون برتقالي بهت بفعل الزمن.

كانت كالموجهة من قِبل قوة داخلية تؤجج غضبها لهدف غير معلوم. بصعوبة فتحتْ الصندوق، وأخرجتْ ما في جوفه من أوراق، نظرتْ فيها لبعض الوقت، ثم أرجعتها مكانها. سكبتْ قليلاً من الكيروسين على الصندوق، وأضرمتْ فيه النيران دون ذرة من تردد.

بشعرها المجعد المضموم للخلف، ونظرتها الحادة، وشفتيها المزمومتين على كثير من الغضب، بانتْ كأنما تمارس طقسًا وثنيًا غامضًا، خاصة أنها أخذتْ تُقرِّب يديها من النار حتى ليخيل لمن يراها أنها على وشك شيهما. لم تفهمْ "ثريا" التي كانت تراقبها خلسة من خلف زجاج النافذة طبيعة ما تفعله ابنتها، لكنها بدت مرتاحة لخروجها أخيرًا من غرفتها التي حبست نفسها فيها منذ عادت إلى البيت.

حين لسعتْها النيران سحبتْ سلمى يديها بسرعة، وجلستْ فوق الجذع الضخم لشجرة الصفصاف التي قطعها رشيد منذ سنوات وبقى جذعها كمقعد غير متناسق وكرسالة تخبر زائرين مجهولين عن وجود الشجرة هنا ذات يوم، وعن حياة مفعمة بالأحداث والتفاصيل الصغيرة غادرت بلا رجعة.

كانت تراقبْ الصندوق وهو يتآكل كأن حياتها هي معلقة بفنائه وتآكله.. يتآكل أمامها رشيد، سميح، جابر، رحمة، ثريا، جميلة، هشام، ولولاّ ويحترقون. تحترق هي معهم كي تبدأ من جديد بروح شابة وذكريات أقل ألمًا.

عاد الثعبان الأسود الغليظ مرة أخرى، خرج من كومة القش متجهًا نحو شق أسفل الجدار المقابل تاركًا أثرًا إسطوانيًا محفورًا في التراب الناعم. لم تبصره سلمى هذه المرة أيضًا، وحتى لو رأته ربما لما حركت ساكنًا لاستغراقها التام في مراقبة النيران والدخان الثقيل المتصاعد منها للأعلى.

بعد قليل قامت بتثاقل، نفضتْ ترابًا وهميًا عن ملابسها، سارتْ ببطء في أنحاء الحديقة غير المعتنى بها قبل أن تستديرْ متجهة نحو سلالم البيت التي صعدتها بسرعة.

منذ طفولتها تعتقدْ أن درجات السلم يجب صعودها عدوًا ورغم تخطيها الثلاثين بسنتين ما تزال متمسكة بهذا الاعتقاد بشكل غير واعٍ.

سحبتْ أحد كراسي البامبو للخلف وجلست بجوار عمتها نظلة المستغرقة في قراءة القرآن بصوت خفيض. جالت بعينيها في الفراندة الواسعة التي نسج العنكبوت خيوطه في أركان سقفها وأخذت نفسًا عميقًا تنهدت بعده. كانت هذه أول مرة تخرج فيها من غرفتها علي الرغم من وجودها في البيت منذ شهر.

كانت عيناها غائرتين أكثر من المعتاد، ومطرزتين بالكثير من الشعيرات الدموية الرفيعة، وذهنها كان سابحًا في مكان آخر أكثر قدمًا وحيوية.. مكان توسطته طفلة صغيرة باكية لها عينا بقرة مذعورة.

***

عادت سلمى إلى بيت أبيها مدفوعة بحلم!

حلمها كان يشبهها إلا قليلاً، كان عنيفًا، وإن ليس ذلك العنف المكتوم الذي يظهر فقط عبر نفاد الصبر والملل الشديد والاحتداد غير المبرر، إنما العنف الحقيقي الموشى بالقتل والدماء وطقوس الدفن.

تلبسها شعور مخيف بالذنب، عايشت ما يعانيه المجرمون الذين وصلت حالتهم حد الشعور بأنهم ملعونون إلى الأبد ولا أمل إطلاقًا في محو تلك اللعنة.. ذلك الشعور الذي يصل بهم أحيانًا حد الرغبة في التلاشي والميلاد من جديد بروح بريئة غير ملوثة.

كانت متأكدة من كونها قتلت شخصًا ما ودفنته بيديها العاريتين ثم نجت بفعلتها، وقفت بدم بارد ترقب دماءه تنزف ثم تتخثر، قطّعت جثته ثم جمعت أشلاءه ووارتها التراب، دفنتها وسوت الأرض بقدميها، ثم جلست على التربة الرطبة من دون أن تعبأ باتساخ ملابسها الأنيقة.

قالت لنفسها "أنا قتلت جميلة".

كأنها تستعيد مشهدًا من الماضي السحيق جاءتها أحداث الحلم، شعور عميق بالذنب سيطر عليها، ليس شعور المجرم الذي انكشف أمره، وتعرض لنظرات التأنيب والاحتقار من الآخرين بسبب جريمته النكراء، فأمدته هذه النظرات ببعض القوة والجرأة على التحدي: تحديهم والبصق عليهم بلا مبالاة، ومداراة شعاع الندم – الذي بدأ ينبثق في داخله – عنهم.

إنما شعور السفّاح الذي ارتكب جرمًا بشعًا بإتقان ومن دون أن يعلم به أحد، وظن أنه قوي لدرجة لن يشعر معها أبدًا بوخز الضمير، لكن قوته خانته، وتحول لا وعيه إلى عدوه اللدود.

كانت تشعر أنها أفسدت حياتها كلها بجريمة القتل تلك، ورغم أن أحدًا لم يرها؛ إلا أنها كانت تفكر في وسيلة للتكفير ولغسل هذه الدماء عن يديها.

في لحظة معينة انفصلت عن حلمها، أصبحت خارجه، ووقفت تتفرج عليه مرتعبة من شعورها بأنها قاتلة خبأت أمر جريمتها لعقود، ثم عليها الآن – بعد أن خانتها قوتها – أن تقر بها.

لحظة الانفصال عن الحلم عادة ما تكون معبرها إلى أرض الواقع، بعدها بلحظات تستيقظ من دون أن تفيق تمامًا من تأثير أحلامها. تبقى تفاصيل حياتها الحقيقية مشوشة في ذهنها لبعض الوقت، تتداخل الأوهام مع الحقائق، والوساوس مع مشاعرها الدفينة.

مغمضة العينين ظلت لفترة تفرز أحداث حياتها، فلم تعثر على أية جريمة تُذكر، حمدت الله على أنها لن تعيش مشاعر الذنب المريرة تلك في الحقيقة، وإن ظلت تشعر بالثقل والتشوش الشديدين. مرات عديدة تسيطر أحلامها على حياتها الواقعية، تجعلها تنفصل عنها، وتغرق في هلاوس الحلم وتشوشاته لدرجة يختلط معها الوهم بالواقع.

كانت واهمة حين تصورت أنها سوف تتخلص من هذا الإحساس بالذنب، صحيح أنه خف كثيرًا عنه في الحلم؛ إلا أنها لم تطرده كليةً، بقي ملازمًا لها وحاولت أن تجد له تفسيرًا.

فكرت أن مغزى الحلم كان في سرية الجريمة المرتكبة، في أن أحدًا لم يعرف بها، وبالتالي لم تنل عقابها عليها. السرية إذن هي مربط الفرس. ترى ما السر الذي تخفيه ويطاردها في مناماتها؟ تساءلت بينها وبين نفسها من دون أن تصل لإجابة تريحها.

في الليلة التالية رأت حلمًا آخر كأنه امتداد لحلمها السابق. في هذا الحلم بدت التفاصيل أكثر وضوحًا وإرعابًا:

فيما كانت جثة جميلة ترقد بسلام على الفراش الذي نقلتها إليه سلمى بصعوبة؛ كانت هي تعدّل من هندامها أمام مرآة الحمام، جددت حمرة شفتيها، ورسمت خطًا طويلاً من الكحل فوق الجفنين العلويين، وأنساها اللون المتورد لوجنتيها أن تضيف أية مساحيق أخرى.

صوت جميلة المتحشرج المبحوح وهي تنطق بكلماتها الأخيرة كاد يوقفها، لكنها كانت قد وصلت إلى نقطة يصعب التراجع عنها، فواصلت طعناتها القوية في صدرها. كان دم جميلة القاني ينبثق ساخنًا بينما أخذت سلمى ترتعش وعيناها مثبتتان على الوجه الذي كانت الحياة تنفلت منه إلى الأبد.

فكرت أن من الحماقة أن تنشغل بتنظيف المكان، ونظرت إلى سترة وردية بلا أكمام وتنورة سوداء قصيرة كانت ترتديهما لتتأكد من نظافتهما. لحسن الحظ السترة لم يمسسها الدم، وإن كانت ذراعها اليسرى قد رسمت عليها بقعة دم طولية بدت أشبه بزهرة جلاديولس حمراء بفرعها الطويل وما يقرب من أربع زهرات متراصة فوق بعضها البعض. راقها هذا التشابه، فضحكت ضحكة تردد صداها في الشقة المغلقة. كانت قد نسيت تلك التي ترقد في الداخل ولا شيء فيها يشبه الحياة.

جلست على الفوتيه، وضعت حقيبتها السوداء الكبيرة على الأرض بين قدميها، أخرجت علبة سجائرها، وبدأت تدخن بهدوء. كانت تشعر بأنها انفصلت نهائيًا عن حياتها السابقة بكل صخبها وخيباتها. لم تعد المرأة الشابة التي كانتها منذ أيام، ولا البنت التي اعتادت أن تكونها فيما مضى. لم يساورها أي شعور بالندم؛ بل على العكس داخلتها لذة خفية صُعقت منها، وإن كانت لم تتنكر لها.. شعور آسر لم تخبره من قبل استحوذ عليها.

مخدرة تمامًا شرعت في تدخين سيجارة أخرى، وحين أنهتها، حملت حقيبتها ودخلت حجرة النوم حيث ترقد جثة صديقة طفولتها. بدت لها قامتها أطول مما كانت عليه. نظرتْ إلى وجهها الأزرق الجامد، ولم تجرؤ على لمسه. هالها التطابق بينه وبين الوجه الذي تحمله هي.

عادت إلى الحمام، فتحت صنبور المياه، وغسلت ذراعها أكثر من عشر مرات. لاحظت هذه المرة الهالات الزرقاء حول عينيها في المرآة،

كما خُيل لها لوهلة أنها رأت وجه أبيها في المرآة، غير أنها عندما أمعنت النظر مرة أخرى كان وجهه قد تلاشى تمامًا.

خرجتْ من الشقة بهدوء، وأغلقتْ الباب خلفها. كان السلم معتمًا بعض الشيء، فاستغرقت وقتًا أطول من المعتاد كي تصل إلى الشارع شبه الخالي الذي خطت فيه ببطء. لم تجد ما تفكر فيه فتشاغلت بعد خطواتها لكنها كانت تخطئ كلما وصلت إلى الخطوة العاشرة فتعاود العد من جديد، وعندما ملّت هذه اللعبة اتجهت إلى مقهى قريب وجلست في ركن مهمل. كان المجهود الذي بذلته قد أنهك قواها، وأفسد كي ملابسها؛ مما أعطاها إحساسًا طاغيًا بالقذارة حاولت تجاهله قدر الإمكان.. أشعلت سيجارة جديدة، وارتشفت رشفة من فنجان القهوة الذي وضعه النادل أمامها قبل أن ينسحب بسرعة.. شربت القهوة بتلذذ، ثم قلبت الفنجان في الطبق، وأمسكته لترى فيه ما يشبه الخريطة الداكنة، كان وجه جميلة أمامها بكل الشحوب والرعب الذي سيطر عليها في لحظاتها الأخيرة. لم تستطع أن تسيطر على القشعريرة التي اعترتها فجأة، فوجه جميلة سينطبع في ذهنها، سيلتصق بها وتلتصق به، طعنات سكينها قربتها منها كما لم تكونا من قبل.

تذكرتها بحنو وهي تحاول التشبث بأي شيء، فيما دمها يتفجر غزيرًا. تمنت لو استطاعت تثبيت هذه اللحظة إلى ما لا نهاية، فلم تكن قريبة من أي إنسان كما كانت معها في لحظتهما تلك، كانت قريبة منها للدرجة التي حلمت بها دومًا وحرمتها جميلة من الوصول إليها.

نظرتْ إلى ذراعها، فإذا بزهرة الجلاديولس الدموية ترتسم من جديد، قامت بحكها فلم تنمح، كانت تتسع كوحش بطيء. ركضتْ خارجة من المقهى.. ركضتْ طويلاً دون أن تحسب المسافة، وعندما أحست بالتعب توقفتْ مستندة إلى عامود نور في شارع مزدحم، كانت الزهرة ما تزال تتسع، وعينان لواحدة تشبهها تنغرزان فيها. مشت بخطوات متثاقلة وهي تردد: واحد.. اثنان.. ثلاثة.

فكرت أنه كان ينبغي عليها أن تلقي نظرة أخيرة على صديقتها. تساءلت كيف خلّفتها وراءها بهذه السرعة؟ بدأت تشعر كمن تخلى عن اسمه، عن هويته أو على الأقل عن جزء كبير منها. لم يعد اسم "سلمى رشيد" يعني لها ما كان يعنيه قبلها بلحظات، صار بعيدًا عنها، وصارت بعيدة عنه بالمقدار نفسه، لم يعد أحدهما يدل على الآخر.

أما جميلة فبدا حضورها كأنما سيتضاعف بفعل الغياب، سيسيطر عليها ويقصيها عن نفسها، جميلة صابر اللعنة التي سوف تسكنها من الآن إلى ما لا نهاية، أناها الأخرى التي انفصلت عنها، وقطعت علاقتها بها دون ذرة من تردد. (١)

استيقظت سلمى من نومها وهي تشعر بضيق فظيع، أحست هذه المرة أن ما رأته لم يكن حلمًا إنما واقع اختبرته وترك طابعه الدموي على

(١) يعتمد هذا الحلم على قصة قصيرة للمؤلفة بعنوان "زهرة جلاديولس حمراء" من مجموعتها القصصية الأولى "ضوء مهتز" دار ميريت القاهرة ٢٠٠١.

روحها. عادة ما تكون أحلامها مجرد شذرات غير مترابطة، وتفتقد لهذا التسلسل المنطقي.

ظلت في فراشها لبعض الوقت وهي تتساءل بينها وبين نفسها عن السبب الذي دفع بجميلة فجأة إلى حياتها من جديد ولو عبر باب الأحلام. غادرت الفراش ودخلت الحمام حافية القدمين، غسلت وجهها، ثم اتجهت للمطبخ، أعدت "نسكافيه"، وحملت الكوب معها إلى حجرة المكتب في شقتها الصغيرة.

جلست أمام الكمبيوتر الذي نسيت أن تغلقه قبل نومها. لم يكن ثمة رسائل إلكترونية لها، كالعادة لم يرد "ظيا" على رسائلها العديدة له. أغلقت جهاز الكمبيوتر، تناولت إفطارًا خفيفًا، جهزت حقيبة ملابسها، وضعت أوراق "الرواية" التي تكتبها في حقيبة يدها، وخرجت متجهة إلى بيت أبيها في القرية، ذلك البيت الذي أصبح مهجورًا بعد وفاة والدها إلا من أمها وعمتها العجوز، وأحيانًا شقيقتها هيام التي تمكث معهما من وقت لآخر.

بعد شهر تقريبًا كانت سلمى تنزل درجات سلالم بيتهم الثماني كنمرة هائجة، يتبعها الخادم بصندوقه الخشبي الضخم. وقفت في المنطقة الجرداء بالفناء الخلفي للبيت غير مهتمة بالحر القائظ أو منتبهة للثعبان الأسود الزاحف بهدوء من كومة القش إلى الشق أسفل الجدار.

كانت عيناها غائرتين أكثر من المعتاد، ومطرزتين بشعيرات دموية

عديدة، وذهنها كان سابحًا في مكان آخر قديم تتوسطه طفلة لها عينا بقرة مذعورة:

في الخارج تزهر أشجار الخوخ، يتسابق الأطفال لشراء الحلوى، تجلس الفلاحات أمام عتبات بيوتهن مثرثرات مع بعضهن البعض، فيما نسوة البيت ذهبن لزيارة المقابر في الصباح الباكر وعدن بغنيمة. وجدتها حكمت تبكي في الطريق إلى هناك. جئن بها بينما يتناول الأطفال والرجال طعام الإفطار على "طبلية" بالفراندة الواسعة للبيت ومعهم الخادم صابر وزوجته بشرى وابنته جميلة.

وقفت الغنيمة في وسط الفراندة تبكي بفستان قصير من الشيفون جورجيت بلون وريقات الفول الأخضر، شعرها الأسود مقصوص "ألا جارسون"، لونها خمري، وعيناها متسعتان كعيني بقرة صغيرة.

كانت في مثل عمر جميلة وسلمى تقريبًا، نظرت إليها الطفلتان بفضول مشوب بالغيرة، فانطلقت البنت في دورة أخرى من البكاء أكثر صخبًا من ذي قبل، كأنما أحست أن وجودها صار مهددًا مع هذه العيون الفضولية المحدقة فيها.

اقتربت منها ثريا وربتت على كتفها بحنو وهي تمسح دموعها، سحبتها لتجلس على الكنبة التركي المفروشة بقماش الكريتون اللبني، وسألتها عن اسمها، فأجابت البنت بصوت مرتعش: سماح.

ثم أردفت من بين دموعها: سماح أحمد عبد الهادي.

طوال ساعتين حاولوا الوصول إلى اسم عائلتها من دون جدوى، بالنسبة لهم العائلة هي كل شيء، أحمد عبد الهادي اسم غُفل لا يمكن الاستدلال عليه في أحراش هذا العالم دون لقب عائلته.

لم تشف البنت غليلهم، و لم تستطع حتى أن تخبرهم باسم القرية التي جاءت منها إلى عزبتهم الصغيرة الموحشة في حضن النيل، فكفوا عن استجوابها.

أحضروا لها طعامًا لم تقربه، وكوبًا من اللبن شربت نصفه فقط. جلست منزوية ويداها الصغيرتان تعبثان بالكرانيش الكثيرة لفستانها الأخضر القصير.

يداها ذات الأصابع الطويلة الرشيقة والأظافر النظيفة المقلمة المزين بنصرها الأيسر بخاتم ذهب يتوسطه فص من الياقوت المقلد كانت محور اهتمام جميلة. بسنواتها القليلة، شعرت بالغريزة وحدها أن هاتين اليدين هما أكثر ما يبعد هذه الغريبة عن عالمهم، ويجعل وجودها فيه وجودًا طارئًا سرعان ما يُنسى.

نظرتْ جميلة إلى يديها هي وإلى أصابعها ذات الأظافر غير المهذبة التي تحتفظ بالأوساخ تحتها وصممت بينها وبين نفسها أن يكون لها هذا المظهر الأنيق المهندم في يوم من الأيام: شعر قصير ممشط جيدًا، أظافر جميلة، فستان بلون وريقات الفول، وقبل كل شيء رائحة ذكية ونظرة أسيانة.

بعد صلاة الظهر مباشرة امتطى سميح حمارته قاصدًا نقطة الشرطة في القرية المجاورة وهو يتسلى بغناء المواويل العديدة التي يحفظها عن ظهر قلب، وبتسميع حروف الهجاء التي بدأ يتعلمها مؤخرًا كي يقرأ الأوراق التي وجدها مخبأة في غرفة والده.

وصل إلى النقطة بعد أن ردد حروف الهجاء لأكثر من ٢٠ مرة. أبلغ الصول باسم البنت ومواصفاتها، ووصف له الطريق إلى بيتهم رغم أن كل من بالنقطة يعرفونه جيدًا، و لم ينس أن يؤكد للصول أنه أول بيت بُني بالطوب الأحمر في المنطقة.

اشترى في طريق عودته عجوة وكبيسًا وبرتقالاً، ورجع مسرورًا بالمهمة التي أنجزها، ونسى لبعض الوقت انشغاله الدائم بالأسرار التي قد يحتويها كنز أبيه الورقي.

في المساء جاء والد البنت بعربة بولو قديمة حمراء، اصطحب ابنته وشكر العائلة. انطلقت عربته ذات الشكمان المثقوب مخلفة ضجة وعوادم ثقيلة، في حين وقفت جميلة تراقبها حتى ابتلعها الظلام تمامًا.

لوقت طويل لن تنمحي صورة البنت من عقلها، ستظل بالنسبة لها الهدف الذي عليها أن تبلغه ذات يوم.

***

أنهت نظلة قراءتها في المصحف، وحملته وقامت ببطء من دون أن تتبادل أي حديث مع سلمى، لم تلحظ حتى احمرار عينيها،

و لم تعلق على حرقها لملابس أبيها وللأوراق القديمة، ولا على انكفائها ليل نهار على أوراقها وكتبها في عملها المحموم للانتهاء من روايتها.

بدت نظلة التي تقترب من الستين كأنما تحافظ على نهجها القديم بألا تورط نفسها بأي شكل فيما يحدث حولها، وبدورها كان آخر ما تريده سلمى أن يتدخل أي شخص فيما تفعله أو حتى يُعلِق عليه.

حين وُلِدت سلمى كانت عمتها ترقد بشكل دائم في الحجرة المجاورة لحجرة أمها ثريا في بيت العائلة، تفتح وعي البنت وعمتها طريحة الفراش تقوم زوجات أشقائها على خدمتها وتحقيق مطالبها.

شباك حجرتها يطل على أشجار موز متجاورة تحجب الشمس المباشرة في الضحى، وتسمح فقط بالدفء والنسيم الذي يمر من بين أوراقها العريضة.

تدخل الصغيرة سلمى الحجرة جيدة التهوية، وتنفذ بجسدها الضئيل من بين القضبان الحديدية للنافذة لتجلس على الإفريز الخارجي، وهي تؤرجح ساقيها وتغني أغاني الإعلانات التي تشاهدها في التليفزيون الذي اشتراه عمها جابر: "اجري بسرعة يا واد يا حسين، تقب وتغطس في دقيقتين، شوف لنا ريري بيتباع فين، هات لنا منه باكو واتنين"، و"بم بم بيقدم جوايز"، تضحك نظلة من الطفلة الصغيرة التي تستطيع حفظ هذه الأغاني، وتطلب منها أن تنزل لتأكل معها، تكتفي هي بشوربة الدجاج وبقطعة من الصدر، وتعطي سلمى الورك والكبد وتراقبها مسرورة وهي تأكل بنهم.

لم تكن نظلة جميلة بالمعنى المتعارف عليه، لكن وجهها كان يشع سكينة خاصة، ونظرتها كانت ذكية. تتحرك عيناها بخفة على الوجوه والأشياء المجاورة من دون أن تتعلق بشيء محدد، لطالما شعرت سلمى حينما كبرت أن عمتها تبدو كما لو كانت تعيش في عالم آخر مفعم بالوداعة. نقطة تميزها الأساسية هي قدرتها على التخلي عن أي شيء وكل شيء، لم ترغب أبدًا في الامتلاك، حتى نصيبها في الميراث لم تهتم به. لم تسأل أبدًا أي قطعة أرض هي نصيبها من أطيان العائلة؟ كما لم تهتم بالمبلغ الذي حصلت عليه من بيع التراب بعد تجريفه. تركت نصيبها لشقيقها رشيد بحجة أن يديره لها، لكنها في الحقيقة كانت كأنما تتخلص بذلك من حمل يثقل كاهلها.

لطالما ظن جابر أن عطف رشيد الشديد وحنانه البالغ تجاه "نظلة" ما هو إلا حيلة للاستيلاء على نصيبها، في حين ستغار "ثريا" دومًا من تعلق زوجها المبالغ فيه بشقيقته الصغرى، وستتعامل معها بوصفها غريمة لها على قلبه.

تظهر هذه الغيرة على استحياء في نبرة صوت ثريا أثناء حديثها مع "نظلة"، وفي إصرارها على التعامل معها باعتبارها غير طبيعية؛ إلا أنها لم تقدر طوال حياتها على التصريح بغيرتها منها أو نقمتها عليها بشكل مباشر.

ظلت "نظلة" طريحة الفراش مدة أربع سنوات. قبلها كانت شابة نشيطة لا تترك ماكينة الحياكة التي تمارس عليها هوايتها الوحيدة في حياكة الملابس لها ولأمها، وأحيانًا لزوجات أشقائها وأطفالهن.

شابة ممشوقة القوام بشعر أسود طويل وعينين مكحولتين وأنف أفطس وشفاه غليظة مثيرة، كانت قد خُطبت لرجل من "بلبيس" يكبرها بعشر سنوات. جهّزت رحمة ابنتها كما ينبغي لعروس من أسرة حديثة الثراء تريد أن تستعرض ما وصلت إليه من نعمة. حاكت نظلة لنفسها فساتين من الساتان الكريمي والوردي، والحرير الأخضر، والدانتيلا السوداء، والقطيفة الحمراء ونبيذية اللون. فساتين بطول شانيل، وأخرى بقصة "الشوال"، أو قصيرة ضيقة الخصر بكيلوش واسع وصدر مكشوف قليلاً، وساعدتها "ثريا" في تطريزها باللؤلؤ المزيف والترتر وخرج النجف والخرز الملون.

ومواكبةً للموضة الرائجة وقتها لم تشتر لها أمها أية أوانٍ نحاسية، واستبدلتها بأطقم الألمونيوم والصيني والساكسونيا التي أحضرها جابر خصيصًا من الإسماعيلية وبورسعيد خلال سفراته العديدة لبيع حمولة عربة النقل التي يملكها من الخضروات والفاكهة لتجار الجملة هناك حين لم تكن مصانع الطوب الأحمر قد ظهرت في أفق المنطقة بعد.

بصوتها العذب وبسخرية مبطنة تغني "ثريا" وهي تساعد نظلة في تطريز ثيابها:

"آه يا دنيا يا دنيا يا دنيا باعوا النحاس واشتروا ألمونيا".

وحين ترمقها نظلة بنظرتها العميقة من دون أن تتكلم تغير ثريا أغنيتها بمرح:

"على بياعين العنب، على بياعين العنب، العنب عنبي والجِنب جِنبي وانت يا شلبي يا بتاع العنب".

في أعماقها كانت سعيدة بقرب ابتعاد نظلة عن البيت، وإن كانت مغتاظة من هذا البذخ في الإعداد للعرس، لكن لا هي ولا أحد من أفراد البيت لاحظوا أن العروس أخذت تغرق في اكتئابها وشرودها كلما اقترب موعد الزفاف.

كانت تنكفئ على الفساتين والمفارش مشغولة بتطريزها، لكنها بهذا الانغماس التام كانت تداري خوفها وحزنها.

ما بدا لأمها وإخوتها دليل موافقة وترحيب بالقران، يمكن رؤيته من وجهة نظر أخرى قرينة على يأس يشبه ذلك الذي ينتاب المحكوم عليه بالإعدام أو بالسجن مدى الحياة؛ إلا أنها كعادتها لم تعلن رفضها، وشاركت الجميع استعداداتهم، بل بدت أكثر منهم انغماسًا في التجهيزات للعرس.

أقامت الأسرة الولائم قبل الفرح بثلاثة أيام احتفالاً بزفاف الابنة كي يرفعوا رأسها ويشرفوها أمام الزوج المنتظر الذي حضر هو وعائلته في موكب من العربات لأخذ عروسه، لكن الحدث تحول تحولاً دراميًا بخوف العروس الهستيري كلما اقترب منها عريسها، لدرجة أن صراخها كان يرتفع كلما حاول ملامستها بعد أن أُغلِق عليهما باب غرفة النوم.

كان جسدها يتشنج ويرتعش وتقبض بيديها على الهواء باستماتة، وطوال شهرين هما عمر حياتهما معًا في بيت واحد لم يفلح في فض بكارتها، كما رفض الاستماع لنصائح والدته له بخرق الغشاء بإصبعه

أو باللجوء إلى "داية" كي تقوم بالأمر بدلاً منه، لكنه تحول لليأس التام حين رقدت العروس في الفراش دون حراك وامتنعت عن تناول الطعام.

ذهب رشيد وجابر إلى "بلبيس" للعودة بشقيقتهما كي تمكث في بيت العائلة حتى تُشفي، وأحضرت لها رحمة عددًا من المشعوذين ممن يدّعون العلاج بالقرآن أو "المشايخ" كما أطلقت عليهم. أكد بعض هؤلاء أن هناك من عمل عملاً سفليًا لابنتها، في حين رأى آخرون أنها معشوقة من أحد الجان الذي غضب بسبب زواجها من آخر.

كانت العروس صامتة تسيل الدموع من طرف عينيها وتبلل خصلات شعرها وهي راقدة على ظهرها. في البداية لم تكن تنطق بأي حرف، ثم تحرر لسانها تدريجيًا، لكنها كانت تعود للصمت كلما ذكّرها أحدهم بزواجها أو حاول معرفة تفاصيل أكثر عما دار بينها وبين عريسها.

بعد عشرة أشهر من رقاد نظلة في بيت أبيها كان الرجل قد تزوج بأخرى لا يتشنج جسدها إذا اقترب منها، وأرسل لنظلة ورقة طلاقها، ومن جديد ذهب جابر ورشيد إلى "بلبيس" لكن هذه المرة من أجل إحضار أثاث أختهما وجهاز عرسها، ذلك الجهاز الذي تكوم في غرفة السطوح الواسعة المجاورة لصوامع الغلال الطينية الأربع، الملابس والمفروشات وُضعت في صناديق خشبية تتخللها حبات النفتالين برائحتها الكريهة، والأثاث تم تفكيكه وتكوم بإهمال مغطى بالملاءات القديمة.

اعتادت رحمة أن تبخِّر حجرة ابنتها صباح كل جمعة وهي تتلو آيات

القرآن، ولسنوات طويلة سترتبط هذه الحجرة في ذاكرة سلمى برائحة البخور المتصاعد منها في صباحات الجمع.

بعد أربع سنوات تقريبًا ستعود "نظلة" لمرحها السابق، وستتمكن من المشي مرة أخرى، وعندما ستلمحها نسوة القرية وقد عادت لجلستها على الكنبة التركي في الفراندة أو للسير أمام البيت سيتهامسن بأن الجني قد سامحها وعفي عنها، لكن أخبثهن ستقول إن ما فعلته كان مجرد حيلة كي لا يكتشف العريس أنها ليست عذراء، وطبعًا ستجد من يقتنع بكلامها، خاصة أن حادثة انتحار لولاّ شقيقة ثريا التي حملت من دون زواج ما تزال ساخنة وحية في الأذهان.

بعدما شُفيت نظلة لم تكن سلمى الطفلة تفارقها إلا للعب أو النوم، حتى عندما تغلق نظلة باب حجرتها عليها من أجل الراحة كانت تترك ابنة رشيد معها، شاهدتها سلمى وهي تلون شعرها بالحناء الواردة من الفاو، وهي تزيل شعر جسدها بالحلاوة المصنوعة من السكر والليمون، وهي تخفي أحد فساتين عرسها لتقيسه في حجرتها وتتحسس جسدها فيه برفق وعيناها معلّقتان بمرآة الدولاب، ثم تخلعه وتضعه في مكانه بحرص وتعود لتلبس ثوبها الفضفاض.

وحين بنى رشيد منزله الأبيض الفخم بعد وفاة أمه، انتقلت نظلة ومعها ماكينة حياكتها لتعيش هناك في حجرة واسعة، لها شرفة محاطة بشجيرات الياسمين والجهنمية، أعدها لها أخوها خصيصًا في منزله.

ستتذكرها سلمى دائمًا كامرأة معتدلة القامة ترتدي بالطو قرمزيًا من الجوخ وتجدل شعرها المفروق من الوسط في ضفيرتين طويلتين.. تغادرها أنوثتها على مهل مع مضي الأيام فلا تكترث محافظةً على نظراتها التائهة المشدودة لمخلوقات لا يبصرها سواها.. امرأة قوية الحدس لديها قدرة مدهشة على تفسير الأحلام والمنامات وربطها برموز تستخلصها من القرآن الذي عكفت على حفظه أثناء رقادها الطويل بمعاونة الشيخة "شمس" التي علمتها القراءة.

ستردد ثريا دومًا وهي تحاذر أن تسمعها نظلة أن الأخيرة امتلكت هذه القدرة لأنها لم تمارس الجنس أبدًا، وستقول إن الشيخة "شمس" ليست شيخة فعلاً، لأنها ممن يسّخرون الجان لتحقيق أغراضهم، ومؤكد أنها أعطت نظلة بعضًا من قدرتها على الاتصال بالجان وتسخيرهم، ستؤكد ثريا بطريقتها الرزينة في نطق الحروف أن هذا "أحرم حرام" وتنهي كلامها بجملة "ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم وعليها".

تخشى ثريا الشيخة "شمس" وبمرور الوقت انتقلت تلك الخشية إلى خشية من نظلة أيضًا. كانت تظن أنهما تستطيعان إيذاءها هي وأطفالها بسبب قدرات سحرية اعتقدتها فيهما، خاصة أن الفلاحين في القرى المجاورة يتحدثون عن الشيخة "شمس" وقدرتها على شفاء المرضى وإيذاء الأعداء بواسطة السحر الأسود.

في صباح أحد الأيام الشتوية البعيدة، وبينما كانت نظلة طريحة الفراش في حجرتها، وجاءت الشيخة لزيارتها وقراءة القرآن لها دخلت

ثريا ومعها حكمت زوجة جابر تحملان "منقد" عبارة عن قصعة مملوءة بالتراب إلى منتصفها وضعتا فيها قوالح ذرة جافة، وبمساعدة القليل من الكيروسين أشعلتا النار فيها وتركتاها حتى تصفو، ثم دخلتا بها لتدفئة الحجرة.

كانت الأمطار الغزيرة والبرد الشديد قد جعلا الجميع حبيسي بيوتهم، ومنع الشيخة شمس من مغادرة منزل العائلة والعودة لقريتها، تلكأت ثريا وحكمت في الخروج، وبعد تردد طلبت حكمت الأكثر جرأة من الشيخة أن تقرأ لهما الطالع، أغمضت المرأة عينيها وبسملت وحوقلت، وهي تدفئ كفيها قرب قصعة النار، ثم تفحصت جبهتيهما وكفيهما وأخبرت حكمت أن سنواتها في هذا البيت معدودة، لكن أحوالها ستتحسن بعد أن تغادره، وقالت لثريا أنها ستعيش سعيدة إلا أن أيامها الأخيرة ستكون قاسية.

أحضرت كل امرأة من المرأتين المصدومتين أطفالها، وتحلق الجميع حول النار التي يتصاعد منها دخان خفيف فاتح اللون، وأخذت الشيخة توزع نبوءاتها عليهم جميعًا، حتى دخلت رحمة وصرخت في زوجتي ابنيها طالبةً منهما الخروج.

***

في حجرة أخيها خالد التي حولتها إلى مكان للقراءة والكتابة تجلس فيه يوميًا من العصر حتى المساء، تقرأ وتكتب، تمددتْ سلمى على كنبة

مفروشة بقماش شانيليا بيج مطبوع بورود زرقاء وزهرية، على الجدار المقابل لها صورة لخالد يبتسم فيها بثقة، أحستْ بالمرارة وهي تنظر لصورة أخيها في مراهقته، أرادتْ أن تمحو من ذهنها كل ما يخص حياته التالية، لتحتفظ فقط بالولد اللطيف الحنون الذي اعتاد أن يرافقها طوال سنوات طفولتها، سواءً إلى "كُتّاب" الشيخة شمس الذي كان والدهما يصر على ذهابهما إليه في الأجازة الصيفية لحفظ القرآن، أو إلى بستان الموز المجاور للنيل للعب مع أولاد عوف الصياد، والتمرغ فوق الحشائش الخضراء التي تفترش التلة المجاورة للطريق الترابي القديم القريب من النيل. يلقيان بجسديهما من أعلى التلة، ويتركان نفسيهما يتدحرجان ضاحكين حتى يتكوما بالأسفل حيث الحشائش ما تزال بعد محتفظة ببعض قطرات ندى لم تفلح الشمس في تجفيفها.

في "الكُتّاب" يجلس خالد الأكبر من سلمى بخمس سنوات على الأرض في ركن الأولاد في حين تجلس هي في ركن البنات المواجه، تتربع الشيخة على مقعدها الخشبي الضخم وقد غطت شعرها بطرحتها السوداء، وأسدلت قطعة من الشيفون الأسود الشفاف على وجهها، فتبين ملامحها حادة من تحت الغلالة الشفافة.

تأخذ كراس سلمى، وتضع سن قلمها الخشبي في قارورة "الكوبيا" بلونها البنفسجي الداكن، وتكتب حروف الهجاء من الألف حتى الجيم أعلى الصفحة على مسافات متباعدة قليلاً طالبةً منها أن تعيد نسخ

الحروف بالأسفل. تصمت لبعض الوقت ثم تنظر لفستان سلمى بغضب كأنما أبصرته لتوها وتصرخ بها:

- ازاي أمك تخرجك من بيتكم كده؟!

تحدق فيها الطفلة ذات السنوات الست مندهشة، وهي لا تفهم علام تعترض الشيخة بالضبط. تبدو متحيرة.. تتلفت حولها كي تداري ارتباكها عن زملائها الذين انتبهوا على صوت معلمتهم، وتعلقت عيونهم بالمشهد الدائر أمامهم.

تغمس المرأة سن قلمها من جديد في زجاجة الكوبيا، وتجر البنت ناحيتها، ترسم بسن القلم خطًا على كتفها بحيث يحاذي حمالة فستانها الأحمر القصير، تحاول سلمى الإفلات، فتقبض المرأة على ذراعها أكثر، وتواصل شخبطاتها على ذراعيها وساقيها محولةً جسدها للوحة قبيحة من الشخبطات البنفسجية. تبكي سلمى بفعل الألم الذي خلّفه السن الحاد في لحمها، وبفعل الإهانة التي لحقت بها، تنزوي في الركن تحاول إعادة كتابة الحروف التي كتبتها الشيخة في كراسها. تختلس النظر إلى خالد الحريص على ألا ينظر نحوها، والمنشغل عنها في حفظ سورة كان يرددها بصوت منخفض.

هل كانت سورة الكهف أم يوسف؟!

تتساءل سلمى في سرها وقد خرجت فجأة من ذلك المشهد القديم، تحيرت لبعض الوقت منفصلة تمامًا عن أي شيء آخر: الكهف.. يوسف..

الكهف.. يوسف؟ كانت السورتان تتحركان في ذهنها مثل بندول الساعة من دون أن تصل هي لاختيار محدد، ومن دون أن تقدر على تجاهل هذه التفصيلة البسيطة لتواصل ذكرياتها، اعتدلت في جلستها على الكنبة، وبدأت تقضم أظافرها بتوتر. قامت بسرعة وهي تدعك وجهها بيدها اليسرى، اتجهت إلى الحمام، وأخذت تغسل يديها باهتمام شديد.

المرأة المنهمكة الآن في تنظيف يديها في الحمّام، جلستْ ذات يوم بعيد من أيام طفولتها في "كُتّاب" الشيخة شمس تغالب دموعها وشعورها غير الواعي بأن خالد خذلها، وأنه كان ينبغي عليه أن يدافع عنها حتى ولو بنظرة متعاطفة بدلاً من أن يتجاهلها هكذا، ويستغرق في حفظ سورة لن تتذكرها بعد ربع قرن وهي ترقد في حجرته شاردة عما حولها في مشاهد قديمة.

عادت اللوحة القبيحة المرسومة بالقلم الكوبيا إلى بيتها باكيةً بجوار أخيها الذي انشغل عنها بمطاردة أشباح وهمية على الأرض أمامه طوال طريق عودتهما الطويل. حين رأتها "ثريا" على هذه الهيئة أخذتها في حضنها، وصممت أن تبقيها كما هي حتى عودة أبيها كي يرى ما حدث لها.

عندما عاد رشيد كانت سلمى قد هدأت كثيرًا، لكن شخبطات الشيخة كانت ما تزال محفورة على ساقيها وذراعيها كتعاويذ غامضة. استشاط الرجل غضبًا وقرر ألا تذهب ابنته لهذه المرأة مرة أخرى.

– مش عاوزها تتعلم من أصله لو هي دي الطريقة.

قال بحدة. وكعادته حين يغضبه شيء ما، وجّه حديثه إلى ثريا كأنما يقنعها بوجهة نظره، أو كأنها هي المسئولة عما حدث لابنتهما. انتعشت سلمى حين سمعت قرار أبيها لأنها لم تحب أبدًا الشيخة شمس ولا "كُتّابها" المليء بالصبية والبنات الأكبر منها الذين يضحكون إذا أخطأت في تسميع سورة الإخلاص أو المعوذتين.

وعلى رغم أهمية أن يشب الأطفال على حفظ القرآن والالتزام بأوامره ونواهيه بالنسبة لرشيد؛ إلا أنه التزم بقراره فعلاً، بل وطلب من خالد هو الآخر أن يكف عن الذهاب لكُتّاب الشيخة ويكتفي بالمدرسة وحدها.

لم يكن رشيد متدينًا على الإطلاق لكنه كان حريصًا على أن يكون أبناؤه متدينين، كأنما يعوض بذلك عن مجونه هو.

اعتاد أن يسأل الشيخ عيد: "هو إحنا هنروح الجنة ولاّ النار؟" يسأل ولا ينتظر إجابة بل يرد على نفسه: "أكيد النار طبعًا، هو اللي بنعمله ده شوية؟ لو اللي زيّي راح الجنة أمال الصحابة والمؤمنين يروحوا فين؟".

يصمت لفترة وهو ينظر للشيخ الكفيف ذي النظارة السوداء والرأس المائل للأمام قليلاً ثم يتابع: "بس برضو ممكن نروح الجنة. على الأقل إحنا مسلمين وموحدين بالله، ده فيه كفرة وبلاوي زرقا".

يجيبه ذو الرأس المائل للأمام والنظارة السوداء كمن يتخلص من عبء مقولة يحفظها: "الجنة والنار أشياء لا يعلمها إلا الرحمن، وعلى المسلم أن يتقي الله كي يجعل له مخرجًا".

كأنما لم يسمع كلمات الشيخ ينتقل رشيد لموضوعات أخرى. وعلى الرغم من أنه يبدو منشغلاً بسؤال الجنة والنار إذ يكرره كثيرًا؛ إلا أنه يسأله بدون اكتراث حقيقي، يبدو كمن يسأل عن الطقس في بلد أجنبي سيزوره ليحتاط في اختيار الملابس التي سوف يصطحبها معه. فقط يريد أن يعرف النتيجة النهائية: جنة أم نار؟ عذاب أم نعيم؟ إجابة سريعة لمجرد العلم بالشيء.

يعرف رشيد جيدًا أنه لن يُقدم على فعل أي شيء لتغيير نفسه. لن يستطيع التخلي عن بذخه واستعراضه وحياته الماجنة لأنه أدمن هذا النمط من العيش، كما أدمن ثريا. كان مهووسًا بها على رغم معرفته لأخريات من دون علمها، وكمحاولة لتعويضها عن هذه "الخيانات الصغيرة" كان ينفق عليها وعلى أولادهما ببذخ شديد.

لم يكن يذهب إلى الجامع طوال العام إلا يومي عيد الفطر وعيد الأضحى لأداء صلاة العيد، وكثيرًا ما وبخه شقيقاه جابر وسميح بسبب عدم تأديته لصلاة الجمعة: "يا أخي ع الأقل صلي الجمعة، تفرق إيه كده عن الكافر واللي ما لوش ملة؟" عبارة كان جابر يرددها دائمًا من دون أن يمل هو ومن دون أن يكترث رشيد بها. أما سميح فوجّه جهوده نحو خالد كي لا يشب على استهتار أبيه.

عندما تخف درجة الحرارة في العصاري، يجلس سميح على المصطبة أسفل تكعيبة العنب أمام بيته ليحكي لخالد عن أفعال أبيه ورفاق السوء الذين يدخن معهم الحشيش ويلوك الأفيون تحت لسانه ويحتسي الخمور. "اللي يسكر ممكن يزني ويقتل ويرتكب كل المعاصي" يقول سميح وينصت خالد. كان هذا هو انتقامه الأكبر من غطرسة رشيد ونزقه.

اعتاد الولد أن يبكي قبل أن ينام وهو يتخيل أباه يتعذب في الجحيم.. كان خجلاً من تصرفات والده، لا يعرف كيفية رده عنها. في البداية أخذ يحكي لسلمى ما يسمعه من عمه ويسألها: "ازاي أصلاً نعرف إذا كانت فلوسه اللي بيكسبها حلال ولاّ حرام؟" البنت المغرمة بوالدها لم تقتنع بكلامه، وحذرت أخاها من هذه الشكوك قائلة: بابا طيب وكريم والناس كلها بتحبه.

لم يتكلم خالد مع سلمى في هذا الموضوع مرة أخرى فظنّت أنه اقتنع بكلامها وطرد هذه الوساوس من رأسه، غير أنه لم يفعل، وبدأ يتصرف بطريقة مختلفة.. أصبح أكثر انطواءً.. نادرًا ما يتكلم مع أمه وأختيه وأبيه.. يأكل قليلاً ويظل بغرفته لأطول فترة ممكنة، لكن ما طمأن والده الذي لاحظ التغيرات التي طرأت عليه هو أن ابنه المراهق أصبح أكثر اهتمامًا بدروسه كما بدأ يداوم على تأدية الصلوات الخمس في المسجد. ورغم أن رشيد نفسه لا يصلي ونادرًا ما يصوم؛ إلا أنه يرى أن التمسك بتعاليم الدين هو الطريق الأفضل؛ لذا سعد كثيرًا بصلوات خالد وتدينه. كان فرحًا ومتباهيًا بتدين ابنه كأنما يتوقع منه أن يؤدي فروضهما معًا!!

لم تدرك سلمى ذات السنوات العشر وقتها أن أخاها ورفيق طفولتها بدأ أولى خطواته في الطريق الذي سيباعد بينهما.

***

منهكةً تمامًا خرجت سلمى من الحمام بعد أن قضت ما يقرب من الساعة في غسل يديها.. خرجت مستسلمة تمامًا لإحساس عدم النظافة الذي بدأ يلازمها مؤخرًا، وكي تتخلص منه تحاشت النظر إلى كفيها اللذين كانا قد تحوّلا إلى اللون الأحمر بفعل الدعك المتواصل في محاولة غسلهما.

وما أن جلست إلى المكتب في حجرة خالد، حتى دخلت عمتها نظلة لتخبرها أن جميلة هنا، وتريد رؤيتها. لو أن أحدهم أخبرها أن الشمس أشرقت هذا الصباح من الغرب لم تكن لتندهش لهذا قدر دهشتها من زيارة جميلة المفاجئة هذه بعد سنوات من القطيعة. كانت دهشتها مختلطة ببعض الخوف إذ تذكرت حلمها العنيف الذي قتلتها فيه.

كانت جميلة هي الشمس وسلمى القمر.

أو على الأقل، هذا ما اعتقدته سلمى لسنوات طويلة.

لطالما ظنت سلمى أنها قمرية مخادعة، اختلست أشعة صديقتها ودفئها. سلبتها نبض الحياة، من دون أن تهتز شعرة في رأسها. مغرمتان كانتا بالالتباس الذي اعتادتا أن تخلفاه في نفوس الآخرين. كانتا تتبادلان الأدوار بهوس. مرة تكون جميلة هي القوية المسيطرة وأخرى تكون سلمى. تلعب جميلة أحيانًا دور أم سلمى التي تستمع إليها،

وتسدي لها النصح وتدللها، وأحيانًا أخرى تقف أمامها كطفلة حائرة لا تعرف كيف عليها أن تتصرف، لكنها في معظم الأحوال، كانت بئرًا تغرق فيه الأسرار، أسرار سلمى التي تفرغها فيها، وأسرارها هي التي لا تغادر جوفها.

كانت صموتة، وحتى لو تحدثت كثيرًا في نوبة من نوبات صفوها المتباعدة، تحرص دائمًا على ألا تتكلم عن نفسها. بدت دائمًا لسلمى كشخص هارب من إثم رهيب ارتكبه، أو سر خطير يحمله. كعميل سري همه الأول أن يحافظ على أعلى درجات يقظته طوال الوقت، أو كأميرة صغيرة وقعت أسيرة في يد أعدائها، وعليها أن تنتبه جيدًا بسبب عيشها في وسط معادٍ.

قد لا تكون سلمى هي القمرية المخادعة بل جميلة. فهي التي "سرقت" حلم سلمى وحياتها حين أخذت اسمها أو على الأقل هذا ما باتت تظنه سلمى في السنوات الأخيرة.

تكونت ابنة رشيد كنطفة في رحم أمها قبل أن تتكون جميلة بثلاثة أشهر، وحين وُلدت اختارت لها ثريا اسم "جميلة" وظلوا ينادونها به لمدة أسبوع؛ إلا أن "رشيد" عندما ذهب ليستخرج شهادة ميلادها، اقترحت عليه الموظفة الحسناء اسم سلمى لوليدته فسجلها به من دون تردد. كان ضعيفًا أمام الجميلات خاصة المتعلمات منهن.

بعد ثلاثة أشهر أنجبت بُشرى ابنتها، ومن دون أن تفكر أسمتها بالاسم الذي سمعتهم ينادون سلمى به في أسبوعها الأول بعد مولدها.

تؤمن سلمى أن الاسم هو الشخصية، وأن أقدارها تبدلت مع جميلة حين تسمت الأخيرة باسمها المفترض، بالأحرى هي لم تؤمن بهذا إلا حين بدأت جميلة في تحقيق كل ما حققته: التفوق الشديد في الجامعة، إكمال دراستها في الخارج، نجاحها في حياتها العملية واستقلالها.

تعرف سلمى أن جميلة لم تحلم بكل هذا، أو على الأقل لم تتخيل أنها قادرة على تحقيقه، كان جل ما تريده هو الزواج بهشام والتضحية بكل أحلامها من أجله؛ إلا أن المرأة الأنيقة ذات اللكنة الأرستقراطية المتكلفة التي ولجت الغرفة بمجرد خروج نظلة كانت جميلة أخرى غير التي صادقتها طوال طفولتها وصباها.

جميلة جديدة ترتدي فستانا قصيرًا أسود، تطّعم كلماتها بالفرنسية والإنجليزية، تضع عطر جيفنشي، وتحمل حقيبة لوى فيتون، تكتفي من غدائها بسلطة خضراء بحجة أنها نباتية، وتنظر لسلمى بنوع من الشفقة، وهي تخبرها أنها طيبة وبنت حلال، وتستحق حياةً أفضل من تلك التي تحياها.

لم تمكث إلا لنصف ساعة فقط. جاءت لتقديم واجب العزاء في رشيد كما قالت، على الرغم من أن وفاته كان قد مر عليها ما يقرب من سنة. فتحت شبّاك الحجرة كي تدخلها الشمس، وجلست في الفوتيه المجاور للمكتب الذي جلست إليه سلمى. قالت كلامًا كثيرًا، لا تتذكر ابنة رشيد منه سوى جملة أن الناس يتغيرون، وأنهما لم تعدا نفس الشخصيتين اللتين

كانتاهما في الماضي. هي نفسها تشعر– كما قالت – بأن حياتها الماضية مجرد حلم عابر.

كانت جميلة أخرى فعلاً غير التي عرفتها سلمى في الماضي. واثقة من نفسها، قوية، تنظر في ساعتها كثيرًا، وتتجول عيناها في الغرفة بعيدًا عن صديقتها القديمة كأنما لا ترغب في النظر في عينيها. غادرت فجأة كما جاءت. ذكرت شيئًا عن تجميعها مادة ما لدراسة تقوم بها عن الموالد القبطية وضرورة زيارتها لبعض الأماكن في المنطقة. وقامت مسرعة، فأدركت سلمى أنها لم تأت خصيصًا لزيارتها.

-٢-

من بين الذكريات الكثيرة المختلطة ببعضها البعض، المتعرجة حينًا والمتقطعة أحيانًا أخرى، من بين تلك الذكريات الكثيفة التي تحولت إلى كتلة واحدة مندغمة غير متنافرة، وبالتالي غير واضحة تمامًا ينبعث – من وقت لآخر – اسم صابر في ذهن امرأة شابة تدعى جميلة تعتني بأصص البيتونيا والجيرانيوم في شرفة شقتها الفخمة في المعادي.

يعبر صابر ذاكرتها كغيمة ثقيلة داكنة تحجب شمس ما عداها من ذكريات. هي لا تتذكره تمامًا، ولا تنساه تماما أيضًا، يبدو كشخص لم يوجد قط، غير أنها حين تعود إلى سنواتها الأولى – تلك السنوات التي تبدو الآن كأنها لم تكن– تتذكره يحملها فوق كتفيه وهو يتلقى الأوامر

من "أمّه الحاجّة" كما يطلق عليها كل من في البيت، وهو يقوم بالمهام المنزلية البسيطة التي تكلفه بها نسوة البيت قبل أن يذهب للحقل.

فيما عدا هذا تتداخل كل التفاصيل مع بعضها البعض. يقف صابر وسط حظيرة المواشي، وهو يحملها إلى صدره، وحوله يقف سميح وجابر و"أمه الحاجة" ومعهم عساكر كثيرون وضابط وعدد من المخبرين. يطلق الضابط عدة تحذيرات غير مفهومة بالنسبة لها ويتلفت حوله في يأس، ثم يغادر المكان وخلفه رجاله، يتبعهم جابر الذي يظل واقفًا حتى تبتعد عربة البوليس بمسافة كافية، ويعود ليحتضن صابر اعترافًا بفضله.

يتحرك صابر بعيدًا عن البقعة التي وقف عليها طوال وجود العساكر، وينحني جابر ليزيح القش المتناثر فوقها بلا نظام، يحفر بحذر ليُخرج السلاح غير المرخص الملفوف بعناية، والمدفون في باطن الأرض.

دائمًا ما يأتي الضابط ورجاله ليلاً، يداهمون البيت فجأة ويفتشون كل شبر فيه، وغالبًا ما يكون لصابر دور في تشتيت انتباههم، وإبعادهم عن بغيتهم التي تكون أحيانًا مدفونة في باطن الأرض، وأحيانًا أخرى في صوامع الغلال الطينية فوق السطح، أو يتم رميها ملفوفة بالقماش فوق سطح البيت المجاور من دون أن يفطن سكانه إلى ذلك.

بعد أن يغادر الرجال كالعادة دون أن يصلوا لشيء، تتشاجر الحاجّة "رحمة" مع جابر قبل أن يصالحها، ويجلسان بجوار بعضهما البعض يتسامران فيما يراقبهما سميح بدهشة من دون أن يتكلم.

يؤرق صابر المرأة الشابة كجرح مرشوش بالملح يأبى الاندمال، أحيانًا تغرق في شعور فظيع بالذنب: كيف تنساه هكذا؟ كيف سمحت له أن يتبخر من ذاكرتها على هذا النحو؟

هذا الرجل الذي مات من دون أن يخلِّف وراءه أي أثر يدل على أنه كان موجودًا هو لعنتها التي لا فرار لها منها.

كان مايو قد جاء بطقس أكثر حرارة من المعتاد في مثل هذا الوقت من العام.. النمل الفارسي الكبير يسير بسرعة ودأب فوق التراب ليدخل في جحور دقيقة أسفل الجدار الطيني لبيت "صابر"، شجرة التوت المجاورة أسقطت الكثير من ثمارها الداكنة بعد أن قضى الأطفال طيلة الصباح في تسلقها وهز أغصانها لتتساقط حبات التوت الشهي في "حجور" زملائهم الذين فردوا جلابيبهم بالأسفل لالتقاطها.

بعض الثمار دهستها الأقدام فتركت بقعًا داكنة على الأرضية الطينية الصلبة بفعل المياه المرشوشة دومًا، وجمعت ذبابًا كثيرًا وبعض الدبابير ونحلة زاد الجو الحار من طنينها.

على مقربة تلعب جميلة الطفلة الحجلة، بجلبابها الكستور السماوي بزهوره الزرقاء، وشعرها الأشعث، ووجهها المتسخ قليلاً. تضع "شققة" من الفخار في المربعات التي رسمتها بعصا صغيرة في التراب، وتحجل محركةً "الشققة" أمامها من خانة إلى أخرى، وعندما تخطئ تبدأ اللعب من جديد باسم أخرى اخترعتها، لأنها لم تجد من يلعب معها أمام البيت في هذا الوقت من النهار.

أمها ذهبت منذ الصباح لمساعدة حكمت وثريا في الخبيز، وأبوها لم يعد من عمله في مصنع الطوب بعد. تمسح التراب عن يدها في جلبابها الكستور الذي يضاعف من سخونة الجو، هي مضطرة لارتدائه لأن أباها لم يشتر لها ملابس صيفية جديدة بعد، ملابس الصيف الماضي قصرت وضاقت عليها، وأمها رفضت أن تأخذ صرة كبيرة من ثياب سلمى وهيام المستعملة أرسلتها ثريا. فغضبت الأخيرة من حساسية "بُشرى" التي أخبرتها أن ابنتها لن تلعب مع سلمى وهي تلبس ملابسها القديمة.

كان صابر حريصًا على مصنع الطوب المملوك لجابر ورشيد كأنه مصنعه الخاص. صابر هو المرادف للولاء المطلق. ولاؤه تام للعائلة كأنه أحد أفرادها، يجد قوته الحقيقية في الإخلاص لجابر تحديدًا. بالنسبة له جابر هو من يعرف كل شيء، من يقدر على تسيير أعقد الأمور، بدونه سينفلت عيار العالم.

سميح مشغول بأمور لا يعرفها سواه ولا تهم أحدًا غيره، كما يفتقر للحسم، ورشيد لا يفهم في الزراعة.. يبدو كأنما لا ينتمي للعائلة ببذخه الشديد ونمط حياته غير المألوف، صابر أكثر انتماءً لها منه. وقت الحصاد يستأجر رشيد عاملاً كي يشتغل في الأرض بدلاً منه. حتى الأعمال التجارية التي يقوم بها من وقت لآخر تكون لحسابه الخاص.

في أواخر السبعينيات كان جابر قد أدرك أن الزراعة لن تساعده أكثر من هذا في توسيع سلطان العائلة، وأن المشاريع التجارية الصغيرة محفوفة بمخاطر الخسارة؛ لذا لم يتردد للحظة في إنشاء مصنع للطوب الأحمر

على فدانين تملكهما العائلة في مدخل القرية. في البداية لم يكن الأمر يتطلب سوى الأرض اللازمة والمال الكافي.. في أقل من خمسة أشهر بنى الفرن والمدخنة شاهقة الارتفاع وجهز "مناشر" تجفيف الطوب الأخضر، والعربات الصغيرة التي تجرها الحمير والبغال لنقله إلى الفرن بعد أن يجف كي يُرص بالداخل تمهيدًا لحرقه وتحويله إلى طوب أحمر.

وعد جابر خادمه بأنه سيعينه رئيسًا للعربجية الذين ينقلون الطوب من المناشر إلى الفرن.. يشرف عليهم ويكافئهم أو يعاقبهم كأنه مالك المصنع، و لم يكن صابر محتاجًا إلى مثل هذا الوعد كي يعمل بجد كأنه يبني مصنعه الخاص.

توفيرًا للتراب اللازم "للمعجنة" التي سيتحول طينها إلى طوب مصبوب في قوالب مختومًا باسم العائلة بدأ جابر بتجريف الأرض التي يملكها هو ورشيد، لم يكن هناك بلدوزرات كما حدث لاحقًا، كان الأنفار وعلى رأسهم صابر يحفرون الأرض بفؤوسهم ويملأون المقاطف بالكواريك ثم يفرغونها في مقطورات الجرارات الزراعية لنقلها إلى "متربة" المصنع. يبدأون من أول الأرض، يحفرون المنطقة الأولى حتى ينتهوا منها وتتحول إلى سفح يعلوه جبل ممثل في باقي الأرض التي لم يتم تجريفها بعد، ثم يبدأ الأنفار في خلخلة توازن التربة بإعمال فؤوسهم في المنطقة السفلية فتنهار الطبقة العلوية من الجبل، وبهذا ينجزون مهمتهم في وقت أقصر.

غير أن هذه الطريقة كانت لها مخاطرها أيضًا، فكثيرًا ما انهارت كتل ضخمة من الأرض على رؤوس الأنفار فأردت بعضهم قتلى، خاصة

مع انتشار المصانع التي فتحت أفواهها كالجحيم في انتظار التراب، ومع حرصهم على القيام بعملية التجريف ليلاً هربًا من قضايا التجريف الذي منعته الدولة.

لم يتردد الفلاحون في تجريف أراضيهم وقد اكتشفوا بالصدفة الطريقة التي حوّلت التراب إلى ذهب، يبيعون تراب أراضيهم مكونين ثروات منه، وفي الوقت نفسه تظل الأرض ملكًا لهم. الأذكياء منهم حرصوا على ألا يصلوا بالتجريف إلى القاع الرملي الراشح بالمياه الجوفية كي لا تبور الأراضي، والآخرون لم يستطيعوا مقاومة إغراء الثراء السريع فجنوا عشرات الآلاف من الجنيهات بنوا بها بيوتًا على الطراز الحديث بحدائق وشرفات متسعة ثم جلسوا خاليي الوفاض يبحثون عن فرصة عمل بأحد المصانع أو فيزا للسفر للخليج بعد أن بارت أراضيهم.

لم يكن صابر يملك ولو قيراطًا واحدًا من الأرض، وبالتالي لم يستفد من هوجة بيع التراب، بقى كما هو في خدمة جابر الذي عيّنه كما وعده رئيسًا للعربجية، لكنه كان يأتمنه على المصنع ككل، اعتبره بمثابة عينه الساهرة على المكان. لفترة طويلة ظل جابر يردد أن المصنع بُنِي على أكتاف صابر.

بعد أن ملت جميلة من لعب الحجلة وحدها، أخذت تطارد دجاجات أمها بعود حطب أمام البيت، وتتعثر في سنواتها الست إلى أن سمعت الصراخ يتعالى من كل صوب: الفلاحون يغادرون حقولهم، ويركضون

ناحية مصنع الطوب. والنسوة يتركن أوانيهن التي يغسلنها في مياه النيل ويتدافعن مولولات قبل حتى أن يعرفن كنه ما حدث بالضبط.

وقفتْ أسفل شجرة التوت المواجهة لبيتهم الطيني تبكي خوفًا، وحين رأتْ أمها "بُشرى" قادمة من بعيد تحمل جرة الماء فوق رأسها، ثم ترميها أرضًا لتتحطم إلى عشرات القطع ويندلق الماء فوق التراب، قبل أن تشق جلبابها وتلطم خدودها وتتمرغ في التراب، حين رأت البنت ذلك، أخذتْ في الصراخ بهلع هي الأخرى، وقد بدأت تدرك أن هذا الحزن يخصهم أكثر مما يخص الباقين.

سندت الجارات بُشرى محاولات أن يدخلنها البيت، لكنها أبت واندفعتْ حافية القدمين نحو المصنع، وهي ما تزال تلطم خدودها وتصرخ.

هناك كان المكان مزدحمًا بمعظم سكان القرية، وبعمال المصانع المجاورة المنتشرة على طول الطريق، توزع الرجال بين "مناشر" الطوب، وتجمعت النسوة بجوار الفرن والمدخنة العالية، فيما وقف الأطفال فوق الطريق الترابي العالي - الذي يربط قريتهم بأقرب قرية لها - يراقبون المشهد بفضول مشوب بالخوف.

أزاحت بشرى الرجال الذين سدوا الطريق بينها وبين جثة زوجها، ولمّا وصلت أخيرًا إلى جوار خلاط الطينة، وجدت صابر قد صار كومة من اللحم المغطى بقش أرز تحوّل إلى اللون الأحمر بفعل الدماء.

لم يكن لديها الوقت الكافي لتفهم كيف شبك جلبابه في سير الخلاّط، الذي سحبه في ثوانٍ معدودات، ليُدخل جسده في مفرمته، ولولا انتباه رشيد وإغلاقه للماكينة بسرعة، لكان جسد صابر كله قد تحول إلى قطعة هائلة من اللحم المفري المختلط بالطينة التي يُصنع منها الطوب.

فصل رشيد التيار عن الماكينة فأنقذ ما تبقى من جسد الرجل.

خلعت بُشرى منديل رأسها المشغول بالخرز وخرج النجف ومزقته، وأخذت تشد في ضفيرتيها كأنما تنوي اقتلاعهما. كان جلبابها قد شُق من الأمام حتى أطرافه فبان قميص الباتيستا الأخضر الباهت الذي ترتديه تحته، لكنها ما أن لمحت ذراع زوجها ملقاة بإهمال بجوار كومة قش الأرز التي تغطى جسده، وقد فقدت إبهامها والسبابة، حتى شقت قميص الباتيستا هو الآخر ليظهر جسدها عاريًا من أسفل القماش المقطوع لا يغطيه إلا حمالة صدر خاطتها بنفسها من قماشٍ منقوش بورود حمراء وزرقاء. كان جسدها شديد البياض متماسكًا، على العكس من بشرة وجهها التي جفت ودكن لونها بفعل العمل الشاق وكثرة التعرض للشمس.

عري بُشرى المفاجئ خطف الأبصار لوهلة من الجثة المكومة مقطعة الأوصال. إلا أن "رشيد" خلع عباءته بسرعة ورماها على جسد المرأة لتغطيتها، ثم وجه لها عدة صفعات متوالية جعلت الدماء تنزف من جانب فمها. بدا كأنما يقول لها أن الموت ليس مبررًا كافيًا لهذا العري المباغت الذي واجهتهم به.

جذبتها النسوة بعيدًا، وأمرهن جابر أن يذهبن بها إلى أمه، و لم ينتبه أحد إلى الطفلة ذات السنوات الست التي تكومت في أحد أركان "مندرة" بيتهم الطيني ترتعش وتنشج من دون حتى أن تفهم حقيقة ما حدث ولا كيفية حدوثه. الصراخ والعويل ورد الفعل الهستيري لأمها وجرة المياه المسكوبة على التراب أخبروها أن مصيبة كبيرة قد وقعت، ولا شيء أكثر.

نامت لبعض الوقت وهي جالسة في مكانها، وحين قامت لتواصل البكاء كان الليل قد حل، وغرق البيت كله في الظلام التام.. لمبة الكيروسين المعلقة في مسمار مدقوق أعلى الحائط كانت بعيدة عنها، وحتى لو كانت قريبة لما استطاعت إشعالها. حاولت الصراخ لكن صوتها خرج ضعيفًا مسرسعًا لا يكاد يظهر وسط الصوات الذي يرتفع من آن لآخر، أو وسط عواء بعيد لذئاب ضالة في الأراضي الزراعية التي تحيط بالقرية من كل جانب، ونباح الكلاب التي يعتقد السكان أنها تنبح أكثر مع الحوادث الكبرى.

بعد صلاة العشاء، أفاقت بُشرى الجالسة بين النسوة مرتديات السواد في بيت جابر فجأة، على أن ابنتها الصغيرة ليست معها، فبدلّت صراخها من " رحت وسبتني لمين يا أخويا" إلى "هاتوا لي بنتي".

انطلق بعض عمال المصنع للبحث عنها في بيوت القرية من دون جدوى، وبعد أن يئسوا فكروا في أن يبحثوا في بيت أبيها على الرغم من كونه غارقًا في الظلام التام، دخلوا البيت مستعينين بكشّاف صغير

ولفوا في أرجائه حتى سمعوا صوت نحيب متقطع صادرًا من أحد أركان المندرة.

كان قلب الفتاة على وشك التوقف: حرارتها مرتفعة، تتنفس بصعوبة، جسدها يرتعش، ووجهها غارق في الدموع والمخاط.

حملوها إلى بيت عائلة جابر، وتركوها لثريا كي تعتني بها حتى تفيق أمها مما هي فيه.

منذ افتتاح المصنع والأهالي ينتظرون وقوع الضحية البشرية، لم يقتنعوا قط بالعجل الضخم الذي نحره جابر في نفس يوم إيقاد نار الفرن وتدوير الخلاّط، خمنوا أنه لابد من وجود أضحية بشرية.

كانت السنة الأخيرة قد شهدت بناء أكثر من عشرين مصنعًا للطوب الأحمر في المنطقة، وفي الوقت نفسه زادت حوادث اختفاء أطفال صغار أو سرقتهم، فانتشرت شائعات مفادها أن هؤلاء الأطفال المخطوفين قد تحولوا إلى قرابين بشرية نُحرت كي لا تنطفئ نيران أفران حرق الطوب، أو تتوقف الخلاّطات عن خلط الطينة.

حين كانت رحمة توصي أحفادها أن ينتبهوا وألا يلعبوا بعيدًا كي لا يسرقهم أحد لذبحهم، كان رشيد وجابر يسخران منها ومن التخاريف التي تملأ رؤوس الناس، ويخبرانها أن المطلوب هو الدماء، ويكفي أن ينحر صاحب أي مصنع ماشية أو كبشًا كما فعل سيدنا إبراهيم.

تصر رحمة على موقفها وتقول إن وابور المياه الذي قامت القرية بجواره قد ذُبح له طفل صغير، فيهز الرجلان رأسيهما من دون أن يجرؤا على اتهام أمهما بالكذب والتلفيق.

أرجع الفلاحون وعمال المصنع سبب المصير التعس لصابر إلى رفض جابر تقديم أضحية مناسبة لمصنعه، همسوا بينهم وبين أنفسهم أن كل أصحاب المصانع لابد وقد قدموا دماءً بشرية قربانًا من أجل استمرار مصانعهم، وإن كانوا أحاطوا ذلك الأمر بالسرية، فهذا لا يعني أنهم لم يقوموا به.

قال هؤلاء إن "صابر" هو ضحية جابر وإخوته لأنه كان لابد من دماء بشرية سواء بالرضا أو الغصب لإدارة عجلة العمل، وكان صابر هو القربان المناسب، وتمنوا ألا تستمر هذه اللعنة لتسحب ضحايا إضافيين.

خلال شهرين من مقتل صابر كان أكثر من ثلاثين عاملاً قد غادروا المصنع باحثين عن العمل في أماكن أخرى هربًا من لعنة الدم التي تخيلوها، لكنهم حين وجدوا أن الحوادث تقع بشكل أو بآخر في معظم المصانع، عرفوا أن الأمر لا يخص مصنع جابر وحده، ومن ثم عادوا للعمل به.

شهدت السنوات الأولى لتشغيل المصانع أكبر عدد من الحوادث التي راح ضحيتها العمال الذين لم يكونوا مدربين بعد على الانتقال المباشر من فلاحة الأرض إلى العمل في المصانع حتى لو في مهن بسيطة، فانقلبت الجرارات التي تحمل مقطوراتها الطوب إلى التجار والمشترين ببعض

سائقيها، وأكلت سيور الماكينات أجساد آخرين، وغرق اثنان أو ثلاثة في آبار المازوت المستخدم في إيقاد الأفران، لكن أكثر الحوادث عددًا كانت من نصيب هؤلاء الذين سقطوا في الأفران أثناء سيرهم فوق أسطحها، لتزل أقدامهم ويبتلعهم جوفها، فيصاب بعضهم بحروق تتراوح في شدتها، ويحترق آخرون بالكامل، ولا يتبقى منهم سوى بقايا العظام المتفحمة.

بإلحاح من جابر، خصصَ الشيخ عيد أكثر من خطبة جمعة لتفنيد الخرافات حول الأضاحي البشرية، والتشديد على أنها أفكار وثنية لا تنتمي للإسلام في شيء، لكن أحدًا لم يهتم بخطب الشيخ وتجاوزها الجميع كأنها لم تكن.

***

بعد وفاة زوجها أغلقت بُشرى باب بيتها عليها هي وابنتها، لم تكن تخرج إلا لجلب مياه الشرب لملء الزير في وسط دارها أو للذهاب للأسواق، حتى الأواني اعتادت أن تغسلها في الفَسَحَة أمام بيتها، وامتنعت عن الذهاب لغسلها في النيل مع باقي النسوة.

كانت تصرِّف نفسها بمعاش شهري ضئيل خصصه جابر لها، وفي الصباح الباكر اعتادت أن تخرج متسترة في الشبورة الكثيفة لجمع "الجِلة" التي تخلفها المواشي وهي في طريقها للحقول، تخلطها بالتبن وبعض الدريس، وتخبزها على هيئة أقراص كبيرة تتركها تجف في الشمس فوق السطح، ثم تبيعها للنسوة المترفات كي يشعلن بها الأفران البلدي

وهن يخبزن الخبز والفطير المشلتت أو يطهين الأرز المعمر بالزبد واللبن. رأس المال الوحيد الذي تركه لها صابر كان جاموسة عجفاء تحلب لبنها وتصنع منه الجبن والزبد واللبن الرائب، كانت تبيع هذه المنتجات ومعها بيض دواجنها في الأسواق.

لم تكن تحب أن تذهب إلى السوق القريبة من قريتهم كيلا يراها أحد معارفها تبيع رزق بيتها، كانت تفضل أن تبيع هذه المنتجات – خاصة في الصيف – في "ميت دمسيس" أثناء مولد أبي جرج "مار جرجس"، أو أمام كنيسة الشهيدة "رفقة" في سنباط؛ حيث يحرص كل زوار المولد على زيارة الكنيسة للتبرك بالقديسة التي استشهدت هي وأبناؤها الخمسة.

في هذه الأثناء ترتفع أسعار الخضروات والفواكه ومنتجات الألبان للضعف، لأن ميت دمسيس وسنباط تشهدان إقبالاً كبيرًا من الأقباط القادمين من كل مكان، يذهب أولاد عوف الصياد لشي الأسماك في الساحات وبيعها لرواد المولد، وتحرص الفلاحات على تخزين الجبن الأبيض في المش ليتحول إلى "جبن قديمة" يلتهمها رواد المولد مع الفطير ويحملونها إلى ذويهم في مدنهم البعيدة.

تأخذ بُشرى ابنتها جميلة معها، تركبان القارب الصغير في الصباح الباكر إلى "ميت إشنا" ومنها إلى "ميت دمسيس"، وهناك تبيع الحمولة التي تحملها في السبت الضخم على رأسها، وتشتري ما يحتاج إليه بيتها، ولا تنسى أن تزور مقام سيدي أبي بكر.

ستظل حتى آخر أيام حياتها تعتقد أن أبا بكر الراقد جثمانه في "ميت دمسيس" هو أبو بكر الصديق صاحب الرسول الذي اختبأ معه في غار "ثور" في طريق هجرتهما من مكة إلى يثرب، لن تصدق الشيخ عيد وهو يقول لها:

– إيه اللي هيجيب أبو بكر الصديق يندفن في ميت دمسيس يا وليه يا مجنونة أنتِ؟ ده الإمام محمد بن أبو بكر.

تهز رأسها موافقة على كلام الشيخ، لكنها في سريرتها ستظل مقتنعة أن الولي الذي تزور ضريحه وتدعو له أن يستر عرضها هي وابنتها هو الصديِّق شخصيًا.

بعد ما يقرب من ربع قرن ستسير امرأة شابة في الأماكن والطرقات نفسها، تدون ملاحظات وأفكارًا وهي تتبختر بفستان قصير أسود يكشف ذراعيها وعنقها مع جزء من صدرها. هذه المرأة الأنيقة ذات اللكنة الأرستقراطية المتكلفة التي تجمع مادة عن الموالد القبطية ستتذكر امرأة شابة متسربلة بملابس سوداء، تسحب بيدها الخشنة طفلة صغيرة، وتقبض على كفها بشدة كي لا تتوه منها في الزحام.. امرأة يختفي جمالها خلف ركام من الهموم والأحزان والعمل الشاق الذي تقوم به من أجل مواجهة الحياة هي وابنتها الصغيرة.

تدمع عينا المرأة الأنيقة التي صارتها جميلة وهي تكاد تشم رائحة أمها التي تشبه رائحة شرش اللبن الرائب المتسرب من بين سمار حصيرة الجبن

وهي تحول الرائب الدافئ إلى جبن قريش تعلقه أمها ملفوفًا في حصيرته في غرفة الخزين، قبل أن تقطعه إلى قطع متوسطة الحجم وترشه بالملح الخشن.

وحين يلمح القس بملابسه السوداء الدمعة الهاربة من عينيها ستخبره أن ذرة تراب قد اخترقتها، وستنتهز الفرصة لارتداء نظارتها الشمسية باهظة الثمن كي لا يلمح الغيوم المتراكمة فوق سماء عينيها منتظرة الفرصة لتتحول إلى مطر مالح ينساب على وجنتيها.

لن تخبره أي شيء عن امرأة تدعى بُشرى، كانت تحلم بزوجها القتيل وقد انفصلت أعضاؤه كل عضو عن الآخر وأخذت تتجول بحرية في أنحاء بيتها الطيني والدماء تتساقط منها وتغطي الأرضية الطينية للبيت.

تؤكد بُشرى لثريا أن "صابر" يزورها ليلة تمام القمر كل شهر، يفاجئها ليلاً بينما تجلس على المصطبة أمام البيت، يأتيها مرتديًا جلبابًا نظيفًا، حاملاً عصا سوداء من خشب الكمثرى، يمشي بخفة وتلمع عيناه بلمعة غريبة تكاد تلحظها حتى في الظلام.

يمسكها من يدها، يترك باب البيت مواربًا ويدخل بها إلى غرفتهما يجردها من ملابسها ويتحسس جسدها بأطراف أصابعه حتى يصل إلى حلمتيها فيتوقف عندهما كثيرًا، تعتصرها الرغبة وينقبض رحمها كأنما يتقافز في جوفها.. يقرب شفتيه من شفتيها ويبدأ في التهامهما، ثم يدفعها برفق لتنام على ظهرها فوق سريرها النحاسي ويندفع راقدًا فوقها، يدخل عضوه فيها بهدوء، ثم يفاجئها بضربات متتالية منه، تتأوه بصوت عالٍ،

وتمنع صرخات ترغب في الاندفاع من فمها، غير أنه يتلاشى فجأة قبل أن ترتوي. يتركها لانقباضات رحمها وتقلصاته التي تمنع النوم عنها.

كل مرة تُمني نفسها أنه سيستمر معها للنهاية لكنه يتلاشى دائماً عند النقطة نفسها.

كانت ثريا تفتح عينيها عن آخرهما وهي تستمع لهذا الكلام من بُشرى، وقبل أن تصل لدرجة التصديق تهز رأسها يمينًا ويسارًا بقوة كأنما تنفض عنه كل ما أدخلته صاحبتها فيه من كلمات، وتقول لها ضاحكة:

ـ جتك إيه يا بت يا بُشرى باين عليكِ خرفتي خلاص.

فترد بُشرى:

ـ أنا عارفة بقى، الأكادة إن صابر لما كان عايش ما كانشي بياخدني براحتي كده، دا حتى لما خد وِشِى ليلة الدخلة كان هيجيب لي نزيف.

لم تحك بُشرى هذه الحكاية لأي شخص بخلاف ثريا، كما لم تفش ثريا سر صديقتها، ومع هذا بدأت القرية كلها تتحدث عن أن المصنع مسكون بروح "صابر" التي تأبى أن تغادره، يقسم الحرِّيق[٢] والعمال الذين يبيتون ليلهم في المصنع أن شبح صابر يظهر في الليالي المظلمة.

(٢) عامل في مصانع الطوب مهمته تشغيل الفرن الذي يُحرق فيه الطوب، وهذه العملية هي الأهم من بين مراحل صناعة الطوب الأحمر والطفلي، ومعظم من يعملون في هذه المهنة في مصانع الدلتا يأتون من الصعيد، لقدرتهم على تحمل درجات الحرارة المرتفعة.

يسمعون صوته وهو يتألم ويتأوه بشدة كأنما أمسك به سير الخلاّط في هذه اللحظة. ومرات أخرى يسمعونه ينادى باسمي زوجته وابنته. اعتاد الحرِّيق – قبل دخول التيار الكهربائي للقرية – أن يُضيء كلوبًا قويا لقهر الظلام من حوله. ويقولون أنه، بينما يتجول بالكلوب فوق الفرن، سمع صوت جلبة قادمة من قمة المدخنة، فلما رفع وجهه لأعلى، رأى – على الرغم من الظلام– صابر واقفًا فوق القمة، وهو يفرد ذراعيه عن آخرهما، وكأنه طائر ضخم يستعد للطيران، أو صليب هائل يصرخ باسمي زوجته وابنته على التوالي، فيما تتساقط قطرات دماء كبيرة من طرف جلبابه.

أطفأ الهواء شعلة الكلوب، فدخل الحرِّيق حجرته فوق الفرن بسرعة من دون أن يكترث لكونه قد يتحول إلى وقود للنيران لو زُلت قدمه. لم يخرج من حجرته حتى الصباح وقضى ليلته يردد كل آيات القرآن التي يحفظها مستعينًا بها على طرد الأرواح، وقبل مرور شهر كان قد غادر إلى بلدته في الصعيد تاركًا لجابر ورشيد مهمة البحث عن حرِّيق آخر بكفاءته نفسها.

اعتادت جميلة منذ طفولتها أن يناديها باقي الأطفال بابنة العفريت، كانوا كأنما يعايرونها بمقتل أبيها بتلك الطريقة البشعة. لم تكن تعرف ما الذي يعنيه أن يتحول أبوها إلى عفريت كما يدّعي سكان القرية؟ هل سيظل هو نفسه أباها القديم يحبها ويخاف عليها؟ يحملها معه من وقت لآخر كي يشتري لها "سندوتشات" وحلوى من "كانتين" المصنع؟ كانت تتمنى أن تلقاه من جديد حتى لو تحول إلى شبح مخالف تمامًا لطبيعته الأولى.

حين التحقتْ مع سلمى بمدرسة القرية المجاورة في العام نفسه الذي توفي فيه، بدأت تكره أن يتغير مدرس الفصل ليأتي مدرس آخر جديد لأنه سيسأل كل التلاميذ عن أسمائهم وعمل آبائهم، كانت لا تخجل من عمل والدها المتواضع، إنما تخجل من موته، من كونها يتيمة أو ابنة لشبح كما يراها أطفال قريتها.

يسألها المدرس: باباكِ بيشتغل إيه؟

فتجيبه: بيشتغل في مصنع طوب.

يتعالى الهمس من مؤخرة الفصل، ثم ترفع سلمى يدها وتقول وهي تداري ابتسامة نزقة: "باباها متوفى يا أستاذ"! تدمع عينا الطفلة الصغيرة حين ترى النظرة المشفقة في عينيّ المدرس، تجلس ثم لا تتمالك نفسها حين يربت على كتفها فتجهش بالبكاء.

لسنوات طويلة لم تتغلب جميلة على إحساسها هذا. في السنة الأولى التي تلت وفاته نجحت في أن تخفي خبر موته عن جميع زملائها في الفصل، ساعدها على ذلك أن مدرستها تقع في قرية تبعد عن قريتهم بخمسة كيلومترات، وأن والدها لم يكن ثريًا أو شهيرًا فلم يعرف أحد عنه شيئًا.

كانت هي وسلمى الوحيدتان في الفصل من قريتهما، وبنهاية العام كانت سلمى قد أخبرت زميلة لهما بالحادث العنيف الذي توفي على أثره صابر، قامت بهذا كنوع من فرض الحماية على جميلة ولإثارة تعاطف تلك الزميلة التي كانت تعامل البنت بشكل سيئ، ومن ساعتها تحولت

حياة جميلة في المدرسة إلى جحيم، زملاؤها وزميلاتها الصغار كانوا يبالغون في معاملتها بلطف بدا لها كنوع من الشفقة المهينة.

فاعتادت منذ سنواتها الأولى في المدرسة الابتدائية على تجنبهم جميعًا باستثناء سلمى التي بدت لها كقدر لا مفر منه، بشكل أو بآخر كانت تحب سلمى، لكنها كانت تضيق بمحاولاتها المستمرة لحمايتها والتحكم في حياتها.. كانت سلمى لا تعاملها كند لها إنما كتابع، لكن تلك المعاملة كانت مغلفة باللطف البالغ الذي يطبع كل تصرفات ابنة رشيد حتى القاسي منها.

بمرور ما يقرب من السنة على مصرع صابر كان جابر قد ضاعف المعاش الشهري الذي يعطيه لبشرى وابنتها، كان يمر بشكل دوري للاطمئنان على حال الأرملة وطفلتها، واعتاد أن يرسل لهما ورقة لحم من وقت لآخر، لكنه من دون مقدمات واضحة أصبح أكثر اهتمامًا ببُشرى التي قاطعتها معظم نسوة القرية خوفًا على أزواجهن الذين عاينوا حلاوة جسدها حين شقت ملابسها يوم مصرع زوجها.

ثريا كانت الوحيدة التي ظلت على علاقتها القوية بها، تحاشتها حكمت زوجة جابر، وعاملتها كعادتها بنوع من التعالي، و لم تتخيل أبدًا أن زوجها قد يهتم يومًا بأرملة خادمه إلا بدافع الشفقة.

حتى حين سمعت من نسوة القرية أن "جابر" أصبح يتردد كثيرًا على بيت بُشرى، وأن مدة زيارته تزيد من مرة لأخرى، أنفت أن تسأله

عن ذلك، وإن كانت قد بالغت في عدوانيتها تجاه بُشرى لدرجة أنها طلبت منها أن ترسل ابنتها للخدمة في بيتهم.

من جانبه لم يصرح جابر لنفسه أبدًا أن الانبهار بجمال بُشرى المخفي هو الأمر الذي منعه من أن يكون السابق في تغطية جسدها قبل أخيه رشيد.

لم يرغب في الاعتراف بأنه اشتهى زوجة خادمه المخلص في الوقت الذي كانت دماؤه ما تزال ساخنة وهي تنساب من لحمه المكمور تحت قش الأرز. كانت زياراته في البداية قصيرة رسمية يحرص خلالها على أن يظل باب البيت مفتوحًا، يتبادل مع المرأة كلامًا قليلاً وهو يتحاشى النظر إليها، ويربت على كتف ابنتها ويمنحها جنيهًا كل مرة.

لكنه بالنسبة للمرأة أصبح بمثابة السند، والرجل الوحيد في عالمها.

ذات ليلة مر عليها مساءً، كان الباب مواربًا كأن بُشرى دخلت على عجل ونسيت إغلاقه، مشى ببطء وهو ينظر لدخان لمبة الكيروسين المتصاعد تاركًا أثره على الحائط الذي عُلقت عليه، نادى على بشرى فلم ترد. فتح أول باب قابله ففوجئ بها ترقد على ظهرها منفرجة الساقين وجسدها يهتز كأن هناك من يضاجعها، وقف الرجل مبهورًا للحظات قبل أن يتراجع، انسحب متثاقلاً وهو يتنفس بصوت مسموع لكنه بدلاً من أن يغادر البيت كما قرر، أغلق الباب وعاد مسرعًا وقد انتفخ عضوه تحت جلبابه، إقترب منها وألقى بنفسه فوقها وهو مبهور الأنفاس،

حاولت المقاومة للحظات، لكنها استسلمت له حتى انتهي منها وحمل عباءته السوداء وخرج من دون أن يلتفت وراءه.

بعد خروجه بمدة قامت بشرى غير مدركة تمامًا لما حدث بينهما. في البداية كانت مستسلمة لما ظنته شبح زوجها، وحين أدركت أنه جابر وحاولت مقاومته خذلها جسدها المتعطش للإرواء. اتجهت للاطمئنان على ابنتها النائمة ما تزال، ثم انخرطت في بكاء متواصل وهي تخبط بيدها فوق رأسها. ظلت مكومة على الأرض تبكي لأكثر من ساعتين ثم غفت رغمًا عنها.. أفاقت مع نور الفجر فقامت لتسخين المياه في حلة كبيرة كي تستحم بها، بدت كأنما لم تستحم منذ زمن وهي تدعك جسدها بقوة لتنظيفه مما علق به.

اعتادت في الأيام التالية أن تجلس واجمة، ترد على ابنتها بالكاد، تنهك نفسها في الأعمال المنزلية لتنسى ما حدث، كانت مرعوبة من احتمالية الحمل، تذكرت لولاّ شقيقة ثريا المتوفاة وأحست بها قريبة منها.. لأول مرة تتفهم تجربتها وتكف عن إدانتها لها.

لم يظهر جابر لما يقرب من الشهر، وتحاشت هي السير في القرية كي لا تراه، إلا أنه طرق بيتها فجأة في وضح النهار بعد أن كانت يئست من ظهوره مرة أخرى.

كانت كلماته مقتضبة للغاية وإن واضحة ومحددة. عرض للزواج لم ترفضه بشرى، فأحضر المأذون في اليوم التالي ليعقد قرانه عليها بحضور اثنين من العاملين معه بالمصنع كشهود على الزواج.

حين انتشرت الأقاويل عن زواجه، حلمت زوجته الأولى حكمت به يناولها باقة نرجس، ويناول بشرى باقة آس[٣] ، لم تكن في الواقع تعرف أن هذه الزهرة تسمى نرجس، وأن الأخرى تسمى آس، لكنها في الحلم كانت تعرف اسمى الزهرتين. كان حلمًا قصيرًا خاطفًا استيقظت معه على صوت آذان الفجر وهي منزعجة. جلست في فراشها لبعض الوقت محاذرة أن توقظ زوجها، ثم تسللت على أطراف أصابعها إلي خارج الغرفة. جلست على الكنبة في الفراندة رغم عدم بزوغ النهار، وهي تفكر في سبب ظهور بشرى في حلمها، ولماذا يعطيها جابر هي الأخرى باقة زهر؟

مرت الساعات بطيئة حتى شروق الشمس واستيقاظ من في البيت، فتوجهت إلى غرفة "نظلة" لتقص عليها حلمها. وجمت نظلة لبعض الوقت ثم قالت لزوجة أخيها أن زوجها قد تزوج بشرى بالفعل، وأنه سوف يطلقها هي ويتمسك بأرملة صابر. نظرت حكمت إليها باندهاش فواصلت أن النرجس يذوى قبل الآس لأنه أقصر عمرًا منه، وكون جابر أعطاها هي نرجسًا في حين أعطى بشرى آسًا يعني أنه سيطلقها ويحتفظ ببشرى.

أحست حكمت بالنار تشتعل في جوفها، كانت تكذِّب إحساسها حتى اللحظة الأخيرة، لكن مع حلمها هذا ومع قدرة نظلة غير المشكوك

(٣) حلم النرجس والآس أحد الأحلام المشهورة الواردة في تفسير ابن سيرين.

فيها على تفسير الأحلام، باتت موقنة من أن الكلام عن زواج زوجها بأرملة صابر ليس مجرد شائعات.

لم تتناول طعام الإفطار معهم في الفراندة، واتجهت إلى حجرتها، جمعت ملابسها وملابس ابنها، وارتدت عباءتها السوداء، وألبست هشام ملابس الخروج، واستأذنت حماتها في الذهاب لزيارة أمها التي لم ترها منذ شهور، وفي ذهنها أن ترسل إخوتها للتأكد من الأمر.

في المساء جاء إخوتها الرجال للتفاهم مع زوجها. اعترف بزواجه من بشرى، فضربت أمه – التي هي خالة حكمت في الوقت نفسه – صدرها وأخذت تعول كأنها فقدت قريبًا عزيزًا.

صمم إخوة حكمت على ضرورة أن يطلّق بشرى كشرط لعودة أختهم، إلا أنه رفض، على الرغم من إلحاح أمه الحزينة بسبب زواجه على ابنة أختها. بعد شهرين ومع تصميم حكمت على عدم العودة إليه طالما ظل متزوجًا من الخادمة كما اعتادت أن تصف بشرى، قام جابر بتطليقها هي، غير أنه لم يستطع أن ينقل بُشرى وابنتها جميلة للعيش معه في بيت العائلة إلا بعد وفاة أمه.

-٣-

تقول رحمة "اليوم الشؤم يبان من أوله".. تهز ثريا رأسها وتمط شفتيها موافقة، فتعود حماتها لتؤكد أن يوم الجمعة به ساعة نحس، والشخص الفطن هو من يلتزم الحرص والحذر في هذا اليوم كي ينجو بنفسه من شرور هذه الساعة غير المحددة.

وحين يعترض خالد الذي يسند رأسه على فخذ أمه ممددًا جسده بجوارها قائلاً إن يوم الجمعة هو أفضل الأيام لأن فيه نزل القرآن على النبي، وفيه ستقوم الساعة، تنظر له جدته من دون أن ترد على هذه المعلومات التي قالها له مدرس الدين، وتلكزه أمه خوفًا من غضب حماتها.

في تلك اللحظة من ظهيرة يوم الجمعة الصيفي ذاك كان غالبية أهالي القرية يتراصون على شاطئ النيل متابعين محاولات العثور على جثة كرم

أكبر أولاد عوف الصيّاد، الذي غرق في الصباح، في حين وقف أبوه وأشقاؤه منهارين غير قادرين على المشاركة في عملية البحث.

كان عوف يلطم خديه ويخبط رأسه كالنساء وهو يصرخ:

"كأنه جاي لقضاه، إيه اللي خلاني أسيبه ييجي النهارده بس". يصمت ثم يعاود الكلام:

"غرق إزاي ده بيعوم من وهو في اللفة؟"

يردد عوف هاتين الجملتين بلا توقف لدرجة تحولتا معها لنوع من الكوميديا، وظل الأطفال الذين حضروا هذا المشهد يرددون الجملة الأخيرة ضاحكين لأشهر بعدها حتى نسوا الحادث برمته، و لم يبق منه غير ما يتعلق ببدر الهبلة والشائعات عن الجنية التي انتقت أفضل أبناء عوف، وأكثرهم أدبًا.

يسمونهم أولاد عوف. أربعة أولاد لكنهم لا يبدون مثل نظرائهم في السن، بل أنضج كثيرًا.

هم "الصيادون" كما تطلق عليهم سلمى، أو أحمد ويسين وربيع وكرم كما تناديهم جميلة.

بقاربهم الصغير ينشرون شباكهم في مياه النيل فيما يشبه الدائرة، ثم يبتعدون بالقارب خارج حدودها، يدورون حولها ببطء ضاربين المياه بالمجاديف بقوة كي تهيج الأسماك، وتلجأ لمنطقة الشباك.

كانت سلمى ومعها جميلة وخالد وهشام يذهبون إلى بستان الموز المجاور للنيل خصيصًا من أجلهم، يأخذون معهم كيسًا من الملح، وأوراق "كوتشينة" وعلبة كبريت. لسبب ما كانوا مأسورين بهم، فكرة أن يكون هناك من هم في مثل سنهم تقريبًا لكنهم يتصرفون كرجال راشدين، لهم مهنة يجيدونها، ويتعامل معهم والدهم كزملاء في المهنة وليس كأبناء يجب أن يطيعوه بدت لهم خلابة.

كانت سلمى أكثر المجموعة انبهارًا بهم، خاصة بكرم، أكبرهم سنًا، الصامت معظم الوقت، والذي يملك سلطة هائلة على إخوته حتى من دون أن يتكلم.

وقت القيلولة كانوا يرسون بقاربهم على الشاطئ المجاور لبستان الموز لا على الشاطئ الآخر الذي تطل عليه قريتهم في الضفة الشرقية للنهر.

يشعلون النار في ظل أشجار الصفصاف والجوافة، وينتظرون حتى تصفو، وبمهارة يفتقدها أطفال العائلة المدللون ينظف ربيع السمك بمطواة حادة يخرجها من الجيب الخلفي لبنطاله، ويضع ياسين الملح والبهار في جوفه ثم يشوونه فوق الصاج تمهيدًا لأكله مع هشام وخالد وجميلة وسلمى. في حين يجلس كرم مستندًا إلى جذع شجرة كافور معمرة يقرأ.

كان الوحيد بينهم الذي يكمل دراسته، اكتفى إخوته بسنة أو سنتين من المرحلة الابتدائية، في حين وصل هو قبل غرقه المفاجئ إلى الثانوية الأزهرية، كان قد انتهى من امتحانه قبل حادثة الغرق بأيام، وحين أعلنت

النتيجة وعرف أبوه أن ابنه حصل على درجات كانت تؤهله للالتحاق بكلية الشريعة والقانون كما كان يحلم، انهار تمامًا وأغلق بابه على نفسه، و لم يعد أحد يراه في البر الغربي من النيل إلا نادرًا.

يقطع هشام بمساعدة خالد سباطة موز من البستان ويدفنانها في كومة التبن القريبة، وبعد أيام تكون قد طابت فيتقاسمونها مع أصدقائهم.

يلعبون الورق ويغنون ويسمعون حكايا أولاد عوف عن قريتهم في الجانب الآخر من النهر والمختفية عن عيونهم خلف أعواد الغاب البلدي والحلفا وبساتين النخيل والمانجو.

حين يحل الظلام مبتلعًا قاربهم المتجه للشاطئ الآخر تجلس سلمى لتبكي، كأنها لن تراهم مرة أخرى، وحين تذهب مع الشلة لبستان الموز في اليوم التالي تُفاجأ بوجودهم كأنما عادوا من قلب الموت.

ذات يوم قاومت خوفها من المياه وركبت القارب مع ياسين وربيع، رفضت جميلة والآخرون لانشغالهم في نحت عرائس من الطين وتسويتها على الصاج فوق "كانون" بناه خالد.

يبتعد القارب ببطء، تجلس سلمى بجوار ربيع في حين يجدّف ياسين، يلوي ربيع ذراعها خلف ظهرها ويضربها فوق كتفها ضاحكًا في اللحظة نفسها التي يظهر فيها سميح، على الرغم من هدوئه الدائم يصرخ فيها ويسب أبناء عوف طالبًا منهم الرجوع بالقارب.

يصفع خالد لأنه ترك أخته تلهو مع هؤلاء الشباب، فيبدو خالد مفاجأً، وهو يضع يده على خده فسلمى مجرد طفلة بالنسبة له.

يرسو القارب ويجرها سميح من شعرها الطويل، فتقع فردة شبشبها اليمنى في الماء.

يضربها على يدها ثم يرميها باتجاه كومة تبن قريبة وهي غير قادرة على فهم السبب الذي حوّل عمها الحنون إلى هذا الشخص القاسي.

يطلب منهم جميعا العودة للبيت وعدم المجيء لبستان الموز مرة أخرى.

سيعودون طبعًا، لكن بعد مرور حوالي الشهر. في البداية على استحياء ثم يمارسون كامل طقوسهم مع أولاد عوف بعد ذلك، لكن سلمى وجميلة سوف تصيران أكثر حذرًا في التعامل مع "الصيادين" رفقاء الصيف.

في الشتاء ينشغلون بالدراسة، وحين يجيء الصيف التالي يعاودون الذهاب إلى النهر، وفي كل مرة يبدأون مع أولاد عوف كأنهم يتعرفون عليهم للمرة الأولى، كانوا دخلاء على عالم أولاد عوف الصياد وكان أولاد عوف دخلاء على عالمهم بالدرجة نفسها.

رغم انبهار سلمى السابق بأولاد عوف كانت ـ كعادتها ـ أول من مل هذه الصداقة. انشغلت بزملاء دراستها وبالألغاز وروايات الجيب التي كانت تقرأها وتتخيل أنها تعيش مع أبطالها في مغامرات لا تنتهي.

في المرحلة الإعدادية كانت تمشي هي وجميلة في طريقهما للمدرسة، وإذا حدث وصادفتا أحد أولاد عوف في الطريق القريب من النهر تختلسان النظر له ثم تتصرفان كأنهما لا تعرفانه، وهو بدوره يفعل الشيء نفسه.

يكون قد أصبح شخصًا آخر مختلفًا تمامًا عن رفيق طفولتهما.. شخص تزوج وأنجب قبل أن يصل للعشرين، يتحدث بصوت غليظ، ولا يهتم بآداب الحديث، وينتقل من بيت لآخر بمقطف السمك المغطى بالبرسيم الأخضر بحثًا عن مشترين.

***

أثناء المحاولات الدءوب للبحث عن جثة كرم في مياه النيل في ظهيرة يوم الجمعة الصيفي ذاك، كانت بدر الهبلة قد هربت من الرقابة اللصيقة لوالدها ونزلت للاستحمام في النيل.

خلعت جلبابها الفوقي ووضعته أسفل حجر صوان كبير على الشاطئ بجوار شجرة صفصاف تنحني بأغصانها المرنة على مياه النهر، وفكت جدائلها السوداء الطويلة ونزلت للماء بقميصها الداخلي الأصفر الباهت.

وحين بدأ البحث عن جثة كرم باستخدام القوارب وبعض من يجيدون السباحة لم ينتبه أحد لوجود بدر، كانت قد سبحت لمسافة بعيدة، وبينما يبحث الرجال عن الجثة بدأب كانت تغطس في الماء، ثم ترفع رأسها للسطح بسرعة، فتتحرك دوائر الماء حول المنطقة التي يشغلها

جسدها، يرتبك من يبحثون ويتجهون لمصدر الجلبة، وحين يصلون للمنطقة المنشودة تكون بدر قد تحركت لمنطقة أخرى، حتى انتبه أحد الرجال لرأس ذي شعر أسود طويل جدًا يعوم في الماء بينما الجسد مختفٍ تحت السطح، فصرخ بفزع: جنية.. جنية.

وفي لمح البصر انطلقت المراكب عائدة باتجاه الشاطئ، وركض معظم من وقفوا على الشاطئ هربًا، وبعد قليل خرجت بدر من الماء وملابسها المبتلة ملتصقة بجسدها، وشعرها الأسود الطويل يقطر ماءً، داست بقدميها الخشنتين المشققتين فوق رمال الشاطئ، ونظرت للجمع الهائج حولها نظرة لا تحمل تعبيرًا يُذكر.

حين أدركوا أن من أثارت خوفهم هي بدر الهبلة وليست إحدى الجنيات اللاتي يتخيلونهن دومًا بشعر أسود بالغ الطول يجلسن فوق المياه لتمشيطه وإغراء الرجال، انطلقوا في ضحك صاخب كأنهم نسوا كل ما يخص حادثة الغرق.

من بين الجمع ظهر الحاج إبراهيم والد بدر، لطم ابنته بقوة وجرها من يدها بعنف، كانت تتشبث في الأرض بقدميها فيما التصق قميصها الباتيستا الباهت بجسمها ليحدد ثدييها الصغيرين المتكورين وتضاريس جسدها الضامر. يجرها الرجل العجوز، وتقاومه بشراسة وهي تبكي وتصرخ بصوت مبحوح، كانت تشتمه بكلمات غير واضحة.. مجرد همهمات عالية بصوت معذب.

كانت لا تطيق البقاء في البيت لأن والدها يحبسها في حجرتها وقد ربط ساقها بجنزير إلى السرير الضخم كي يمنعها من الخروج إلى الشارع خوفًا عليها ممن قد يستغلون جنونها.

مرات عديدة كانت تنجح في أن تفك الجنزير من عامود السرير، لكنها تفشل في أن تخلص ساقها منه، فتنسحب من البيت في غياب والدها وهي تجر أصفادها الثقيلة خلفها حتى تصل إلى بيت عائلة جابر، بصوتها المبحوح الخشن تنادى "يا جابر.. يا جابر يا ابن الوسخة تعالى فكني".

تجلس على الدرجة الأولى من درجات السلم الأسمنتي المدهون باللون النبيتي، وهي تواصل نداءها على جابر الذي اعتادت أن تلجأ إليه - كي يخلصها من جنزير يترك ندوبًا لا تنمحي من ساقها- لأنه الأقدر على حمايتها من ثورة والدها حين يعلم بأمر هروبها من محبسها.

إذا كان جابر موجودًا يخرج لها على الفور فتزحف صاعدة درجات السلم وصوت الجنزير المرتطم بالدرجات يهز السكون حولها، تجلس على البلاط وينحني هو كي يحررها مستخدمًا طفّاشة حادة.

تضحك فتبين أسنانها الصفراء وتنظر لأهل البيت الذين خرجوا خلف جابر على صوت ضجتها بامتنان مشوب بالصفاقة. يطلب من حكمت أن تجهز لها شيئًا تأكله في حين تبدأ هي في وصلة سباب موجهة لأبيها وأمها وأخوتها.

يسألها جابر مداعبًا: مش هنتجوز بقى يا بدر؟

فترد وهي تضحك حتى يرتجف جسدها الضئيل: ما تيللا يا خويا، حد حايشك، بس طلق بوز الإخص حكمت الأول.

جابر هو الشخص الوحيد الذي تتبادل معه بدر الكلام بأقل قدر ممكن من السباب.. كانت على الرغم من غياب عقلها، إذا اقترب أحدهم من جسدها، حتى ولو بدون قصد تظل تصرخ بلا توقف، وتسبه وتقذفه بالحجارة حتى يختفي ركضًا خوفًا من الفضيحة. لكنها ترتاح لجابر وتضحك معه وتعادى زوجته حكمت وتسبها بأقذع الألفاظ غيرةً عليه.

بطلاقه لحكمت عندما أصبح زواجه من بشرى أرملة صابر معلنًا، بدأت مرحلة جديدة في حياة بدر، إذ توقفت عن اللجوء لجابر كي يفك لها أصفادها. كانت كأنما غضبت منه لأنه لم يتزوج منها هي، حين تقابله بالصدفة في الطريق تدير وجهها للجهة الأخرى، وإذا وجه إليها كلامًا لا ترد عليه.

وبعد أقل من شهرين على إعلان الزواج، اختفت بدر الهبلة تمامًا. كان إخوتها لم يرجعوا بعد من عملهم في مصنع جابر، صحا والدها ووالدتها من نوم القيلولة ليجداها قد فكت الجنزير كالعادة، وهربت به. اتجه من فوره لمنزل جابر متوقعًا أن تكون ابنته قد لجأت له لتخليصها من الجنزير كما تفعل كلما نجحت في فكه من ساق السرير. ففوجئ بأن "جابر" لم يرها منذ مدة.

فتش الرجل عنها في كل مكان كالمجنون، لكن من دون جدوى. لجأ لنقطة الشرطة، دار في القرى المجاورة هو وإخوتها، إلا أن بدر كانت كأنها "فص ملح وداب".

لم يبق منها غير ملابسها القديمة في دولاب أمها، وورقة منسوخة تحمل "فوتو كوبي" لصورة قديمة لها مكتوب أسفلها:

الاسم: بدر إبراهيم سيد أحمد.

السن: ٣٩ سنة.

الحالة: متخلفة عقليًا.

ظلت هذه الورقة ملصوقة على أعمدة الكهرباء في قرى المنطقة كلها، وعلى جدران المدارس، ونقطة الشرطة. غير أن أحدًا لم يدل بأي معلومات قد توصل أهل بدر لها.

كان والدها يبكى ليل نهار إحساسًا منه بالذنب. من وقت لآخر كان سائقو عربات النقل والجرارات التي تحمل الطوب لبيعه في القرى والمدن البعيدة، يخبرونه أنهم رأوا واحدة تشبهها، في كفر الزيات، أو دمياط. بل أخبره أحدهم ذات مرة أنها أوقفت عربته على طريق مصر- إسكندرية الزراعي وركبت معه متجهة لدمنهور، وحين قال لها إنه يعرفها وإنه يشترى الطوب من مصنع جابر، بدأت في الصراخ، فخاف وتركها تنزل، قبل أن يقود سيارته النقل مبتعدًا بسرعة.

وفي كل مرة كان والدها ومعه أحد أبنائه يسرع للبحث عنها في المكان المذكور، حتى بدأ أبناؤه يملون من رحلة البحث التي لا تنتهي، فهددوه بالحجر عليه، إذا لم يتوقف عن جرهم خلفه من مكان لآخر.

-٤-

تجلس سلمى في شرفة بيت أبيها تقرأ "الحب في زمن الكوليرا"، كلما انتقلت من صفحة للتي تليها تعود إليها من جديد للتأكد من أنها قرأتها فعلاً، ذهنها المشوش يخلط الأحداث والأشخاص ببعضها البعض.

عمتها "نظلة" تستقبل ضيوفًا متنوعين أتوا منذ الصباح لحضور الذكرى الأولى لوفاة رشيد، كلما جاء أحدهم تنظر بحدة ناحية سلمى كأنما تستحثها على القيام للترحيب به معها، لكن ابنة أخيها تحدق فيها من دون أن تبدي أي رد فعل يُذكر.

تتوه في الرواية التي بين يديها من دون أن تفهم تمامًا تفاصيل ما تقرأه.. تخشى نظلة أن يعتقد الناس أن سلمى قد جُنّت؛ إذ كيف تجلس هكذا مهوشة الشعر بملابس ملونة تقرأ من دون أن تبدي الحزن اللائق.

تقود نظلة الضيوف بهدوء للداخل كي يجلسوا في الصالون بعيدًا عن المرأة غريبة الأطوار التي صارتها سلمى.

عصفور بني صغير يحط على الدرابزين الأسود الذي يعلو سور الشرفة، تتابعه سلمى باستغراق تام وهو يحجل، تعد خطواته غير أنها تعجز عن مواصلة العد، تسيطر عليها فكرة أنها أخطأت فتبدأ العد من جديد، قبل أن تطوح يدها في الهواء، فيصاب العصفور بالذعر، ويطير مبتعدًا.

تنتبه فجأة على صوت توقف عربة مرسيدس سوداء أمام البيت مثيرة الكثير من الغبار، تنزل منها مارجو ميشيل بفستان أسود يكشف عن ساقين جميلتين ومعتنى بهما.. كانت قد تركت وجهها فريسة لمكياج كامل لا يتناسب إطلاقاً مع هذا الوقت من النهار، ولا مع كونها هنا لحضور الذكرى السنوية الأولى لرشيد.

تصعد سلا لم البيت بهدوء وثقة يتبعها والدها وقد بدا أكبر من عمره الحقيقي بسنوات بسبب خشونة ركبتيه التي أثرت كثيرًا على حركته. تراقبهما سلمى وهما يتجهان نحوها. تتعلق عيناها بالكوليه البراق في عنق "مارجو"، تحاول أن تبعد عينيها عنه إلا أنها لا تستطيع، تقترب مارجو منها وتحييها بفتور وهي تشد على يدها، لا تنظر سلمى لوجهها لأنها ما تزال مصوبةً نظرتها للكوليه، لم تكن نظرة إعجاب أو اهتمام، إنما نظرة فارغة بلا أحاسيس تُذكر، كأن صاحبتها قد أصابها مس ما.

– فين طنط "ثريا"؟

قالتها "مارجو" بصوت محايد، ومن دون أن تنتظر إجابة لن تسمعها من سلمى خطت للداخل يتبعها أبوها بخطوة شيخوخته العرجاء.

تطرقع سلمى أصابعها وقد عادت لجلستها من جديد، ترمي الرواية بإهمال على المنضدة أمامها وهي تحاول أن تطرد من ذاكرتها ضحكة قديمة تشبه الغرغرة:

تكركر مارجو الطفلة في ضحكها، تنعقد الضحكة وتتعقد مرات عديدة كأن صاحبتها تتغرغر بمياه ساخنة، قبل أن يحتد الصوت ويسرسع مختتمًا ضحكته حادة الحواف.

عيناها سوداوان، ولونها خمري، ولها شعر بلون الفحم، ترتدي فستانا أحمر على صدره ميكي ماوس أسود كبير يشير بعصا المايسترو، وينتهي الفستان فوق الركبة بـ "كنار" به أكثر من ميكي ماوس أصغر في الحجم يكونون دائرة حول ساقي البنت.

تضحك مارجو وهي تسير مع هيام وجميلة وسلمى وخالد وهشام بجوار النيل محاولةً تفادى نباتات الحلفا وذيل القط التي تجرح بشرتها في الطريق لحقل الذرة. يبالغ الجميع في تدليلها، وتتمتع بجرأة مدهشة. رغم صغر سنها تنادى الخال "مصطفي" الذي يرتعب منه جميع الأطفال باسمه مجردًا. هو نفسه ذلك الخال الذي إذا نظر لأحد أطفال العائلة بغضب ينتفض قلبه بين الضلوع.

تضحك مارجو وتردد كلمات بالفرنسية لا يفهمها أحد غيرها.. تنظر للنيل وورده البنفسجي اللون ولأغصان الصفصاف المائلة على مائه وتقول إن المكان هنا كأنه فينسيا.

هي لم تر فينسيا أبدا ورغم هذا تصر على ادعاء معرفتها بكل شيء: إنها الأفضل.. الأكثر ذكاءً.. التي تدرس في الساكر كير.

طوال الوقت تواظب على عمل إعلانات عن نفسها.. عن تفوقها على المحيطين بها الذين لم يغادر معظمهم هذا المكان النائي.

تتبعها هيام كظلها، ترافقها ككلب وفي أينما سارت في العزبة، تحثها ثريا على ذلك؛ إذ يجب أن تُدلل الصغيرة إكرامًا للخال صديق والدها، وإكرامًا للبريق الذي يحيط بها بسبب اختلاف ملابسها ولهجتها وكل ما يخصها عن كل ما تعودوا عليه.

لم تحبها سلمى كثيرًا في البداية، ولم تفهم لماذا تعاملها جدتها لأمها كقطعة كريستال ثمينة قابلة للكسر، في حين تعامل بنات العائلة كمخلوقات أقل قيمة أو كرزايا كما تصفهن.

كانت سلمى الطفلة تنظر إلى الصليب المدقوق بقسوة على اليد اليمنى لمارجو الضاحكة دائمًا ولا تقول شيئًا، فقط تظل تراقب كل حركاتها وتندهش من ترحيب جدتها رحمة بها حين تأتي لبيتهم للسلام على طنط ثريا كما تناديها.

تندهش لأن "أمه الحاجّة" هي نفسها المرأة التي لطمت خدودها، وصرخت في جابر حين وظّف رزق حريقًا لمصنع الطوب، خلفًا للحريق الأول الذي ترك العمل بعد رؤيته لشبح صابر فوق مدخنة المصنع الشاهقة:

– هي ضاقت في وشك ما لقيتشي غير النصراني ده تشغله عندك؟

سألته صارخة و لم تستمع له وهو يبرر لها:

– ده أحسن حريق في وجه قبلي يا حاجّة، ومصانع المنطقة كلها كانت بتتخانق عليه.

أصدرت حكمها من دون أن تنظر إليه:

– ربنا مش هيبارك لك في المصنع طول ما النصراني ده فيه!!

هذه المرأة التي كانت تقول لرزق وزوجته عايدة "يا أهلا بالحبايب"، بينما تختلس النظر بعدوانية للصليب الأخضر المدقوق على يد كل منهما، هي المرأة نفسها التي تقابل مارجو ميشيل بالأحضان والقبلات، وتعمى عينيها عن رؤية صليبها.

تصير مارجو هي فقط ابنة المهندس الثرى صديق عائلة ثريا والشريك المحتمل لابنها جابر في صفقات قادمة.

مارجو من جانبها لا تلعب مع ماريز وجرجس طفليّ رزق وعايدة أثناء زياراتها الصيفية للقرية، تتجاهلهما تماما وتتأفف حين يقتربون منها، ولا تتحرك إلا بصحبة حاشيتها المكونة من هيام وخالد وباقي أطفال العائلة ومعهم سلمى وجميلة الصامتة دومًا.

ترتبك "ماريز" في وجود مارجو، تصبح المسافة بينها وبين بقية الأطفال المصاحبين للفتاة التي تضحك كأنها تتغرغر أكبر، تتابعهم بعينيها الواسعتين حين يمرون بالنوّالة[٤] القديمة التي أعطاها جابر لأسرتها كي تقيم فيها، وتتمنى أن تكون معهم في جولاتهم وألعابهم التي لا تنتهي، لكن إذا اقتربت سلمى طالبةً منها أن تنضم إليهم، ترد عليها بالكاد وترفض مقطبة الجبين وهي منغمسة فيما تفعله، سواءً كانت تكنس أمام النوّالة، أو تقطف ثمرات الخروع وأوراقه للعب بها.

"مارجو" مثلها مثل "نهاد" زوجة مصطفى تشكو طوال الوقت من الناموس الذي يسبب حساسية لبشرتها الرقيقة، دائمًا ما تعقد المقارنات بين العزبة الخالية من كل وسائل الرفاهية وبين القاهرة المدينة الكبيرة. تتلخص الملاحظات التي تأخذها على العزبة في:

أ- انتشار الناموس بشكل كبير صيفًا.

ب- عدم توافر محلات سوبر ماركت أو نوادٍ أو ملاهٍ، وهذا أشد ما يزعجها.

جـ- أن الناس لا تسمى الأشياء بمسمياتها. هم يقولون "البحر" قاصدين النيل أو النهر، يقولون "مصر" قاصدين "القاهرة".

(٤) بناء من الطوب اللبن، حوائطه مليئة بفتحات التهوية، أُستخدم في الماضي لتخزين البطاطس في الريف قبل انتشار الثلاجات المخصصة لذلك.

كانت تردد الملاحظة الأخيرة كثيرًا أمام سلمى، فوضعت ابنة رشيد تعريفًا للتحضر من وجهة نظرها هو: "أن يسمى الناس الأشياء بمسمياتها". وظلت مخلصة لهذا التعريف حتى بعد مرور السنوات عليها وتزايد معارفها.

كانت تتضايق من أمها إذا سألتها "هتروحوا البحر النهارده؟"، فترد محتدة "اسمه النيل"، تواصل ثريا بصبر نافد: "الخلاصة هتروحوا ولا لأ؟"

تخجل من كون أمها غير متحضرة لتلك الدرجة، وتصمم أن تكون شيئًا مختلفًا حينما تكبر. من دون أن تدرى سلمى أو تعترف بذلك كانت مارجو تؤثر عليها كثيرًا.

على رغم ملاحظات مارجو على "العزبة"، إلا أنها ظلت حريصة على قضاء جزء لا بأس به من أجازة الصيف بها، لأنها أحبت المتع الأخرى الكثيرة التي توفرها لها، مثل النزهات على النيل وفي قارب أبناء عوف مع هشام وخالد، والذرة الأخضر الذي يقومون بشيه في الحقل في طقس تعشقه البنت الضاحكة دائمًا عشقها للتدليل الشديد الذي يحيطها به كل من في المكان.

تقيم مارجو التي تحضر كل عام بصحبة أبيها وشريكه مصطفي في بيت "المعاون" مع جدة سلمى لأمها وخالتها العانس "أنوار"، يغادر أبوها مصطحبًا معه مصطفى بعد يومين على الأكثر تاركًا ابنته مع الأسرة مدة شهر.

في هذا البيت المعروف ببيت المعاون، ووسط هذه العائلة التي تنتمي إليها أمها، تشعر سلمى أنها تنقص درجات تضاف إليها بمجرد انتقالها إلى عائلة أبيها، بين أعمامها تكون ابنة أبيها المدللة أو أميرة رشيد الصغيرة، الابنة التي يتشاجر معه جابر بسببها قائلا أن ما هكذا تُربى البنات" اكسر للبنت ضلع يطلع لها أربعة وعشرين".

في بيت جديها لأمها تصبح مجرد "بنت ثريا"، ابنتهم التي إن طالبت بحقها في ميراث أبيها هي وأختها أنوار، سينفرط عقد العائلة، وتتحول قطعة الأرض التي يملكونها إلى "فتات".

حتى جدتها لأمها تنظر لأطفال ثريا كدخلاء على عائلتها، تعرف ثريا هذا لكنها لم تعترف به أبدا. هي الممزقة بين حبها لأسرتها وكراهية عائلة زوجها لهذه الأسرة، تعلمت ألا تظهر مشاعرها الغاضبة، مرات قليلة تتذكرها سلمى بشكل ضبابي هي التي لفتت نظرها لشعور أمها بالخذلان.

***

كانت سلمى ما تزال غارقة في أفكارها حين خرجت مارجو ووالدها بعد أن قضيا ما يقرب من الساعة في الداخل.

هذه المرة نظرت لها مارجو ببعض الشفقة وهي تغادر، نزلت الدَرَج بهدوء وهي تمسك بيد أبيها لتساعده على النزول. جلست أمام عجلة القيادة، وانتظرت حتى ركب أبوها بجوارها، ثم انطلقت بالعربة.

هذه الانطلاقة السريعة بدت لسلمى التي أفاقت عليها كنقطة فاصلة بين عالمين وحياتين، حياة أولى حيث العالم كما عرفته صغيرة: آمن يدللها فيه الجميع ويخاف عليها.. عالم يحوى أباها وجميلة وهيام بشخصيتها القديمة، وحياة جديدة فقدت فيها كل ما رغبت يومًا فيه.

كانت مارجو ووالدها ميشيل آخر الضيوف، وبرحيلهما سيكون على سلمى أن تواجه أمها وعمتها من جديد، كانتا مشغولتين عنها في الأيام السابقة بالإعداد للذكرى، ثم باستقبال الضيوف، الآن ستعودان من جديد لجلستهما المفضلة بـ"الفراندة"، وستعود نظلة بإيعاز من ثريا لسؤال سلمى عما جرى بينها وبين زوجها ظيا، ولماذا لم تلحق به إلى مانشستر كما أخبرت الجميع أنها ستفعل حين سافر فجأة منذ شهور قليلة بمجرد خروجها من المصحة التي دخلتها بعد وفاة والدها مباشرة للعلاج من الانهيار العصبي.

قامت سلمى بسرعة متجهة إلى غرفة خالد القديمة، جلست إلى المكتب وانكفأت تكتب في أوراقها:

كثيرًا ما أشعر أني غير طبيعية.. مجنونة بشكل أو بآخر لكنه ذلك النوع من الجنون الذي يصعب الإمساك به، أو ملاحظته من جانب المحيطين.

أنا وحدي أشعر بهذا الجنون الأليف الذي ينمو بهدوء ودأب بداخلي، يبدو كسرطان كامن يأكلني من الداخل، بالأحرى جنوني ليس هو السرطان الذي يغذى عليّ، إنما أنا نفسي ذلك السرطان الذي يتوغل في ذاته، أصبحت أنا خلية سرطانية نشطة في جسد ضعيف هو جسدي.

قوتي الخارجية، وذلك الشعور بالثقة بالنفس ما هما إلا قناع صلب يخفي وحش الجنون الذي يهددني. ثمة صباحات تشعرني أني خارج الوجود، أو في أبسط الأحوال أعيش على حافته.. صباحات تخبرني من دون أن تتفوه بكلمة واحدة أني بلا هوية، بلا ذاكرة، عاجزة عن القيام بأبسط الأشياء.

أقف أحيانًا أمام مرآة الحمام، بعد استيقاظي بدقائق قليلة وقد نسيت اسمي. لا أقصد النسيان التام، لكن ذلك الشعور بالانخطاف الذي أعجز معه للحظات عن تذكر كل ما يخصني بصورة واضحة، بحيث أرى وجهي فلا يعني لي أي شيء، أبذل مجهودًا كبيرًا لتحديد موقعي من هذا العالم، من هذا الجسد الذي تحتله روحي.

أمر بهذه التجربة بشكل متكرر، أصبح عاجزة عن القيام بفعل بسيط كفتح صنبور المياه، أنظر لفرشاة أسناني بذهول محاولة أن أتذكر كيفية استخدامها، يستمر هذا الانخطاف لثوان قليلة أعود بعدها لحالتي الطبيعية، لكن هذه الثواني كافية تمامًا لترك تأثير مرعب بداخلي يجعلني أدرك أني غير آمنة، يمكن أن أتلاشى في أية لحظة.

مثل هذه الصباحات تجعل ردود أفعالي بطيئة لبقية اليوم، أندهش حين تنطق أمي أو عمتي نظلة باسمي ببساطة وثقة، أو حين تستأنف هيام نقاشًا بدأته معي بالأمس. إلا أنني لم أحك لأحد أبدًا حتى طبيبتي عما أمر به أحيانًا من انفصال تام عن كل ما يحيط بي.

أسير في الشوارع المكدسة فلا أرى شيئًا. لا أبصر البلد التي شابت فجأة لأنني مشغولة فقط بذلك الجنون الذي ينمو بداخلي ومتوحدة تمامًا معه.

أشعر أني أعيش يوماً واحداً يتكرر بلا نهاية، أنا في حالة "déjà vu" دائمة.

كل ما أمر به أشعر أنني اختبرته قبلا، كل ما يحدث حولي يبدو كنسخة تتكرر بشكل أبدى لحدث وحيد عايشته في طفولتي.

لا شيء يتغير في حياتي، لا شيء يتغير في البلد الذي أعيش فيه، كأننا أمام يوم واحد بأحداث واحدة.

أغمض عيني فأرى عوالم أخرى، أبصر عالمًا متوهجًا، أشجاره حُمراء ونباتاته كذلك، بحاره وسماواته خضراء بدرجات متفاوتة، اللون الأزرق فيه هو مجرد ظلال للونين السابقين.

هو فردوس ملون كما أسميه، أهرب إليه فأخرج من ذاتي وخيباتي، أصير أخرى، لا يربط بينها وبين شخصيتي الحقيقية أقل القليل.

***

في الصباحات "الجميلة"، اعتادت سلمى أن تكون في أفضل حالاتها، تخرج من شقتها الصغيرة متوجهة مبكرًا للجريدة التي تعمل بها، تتغاضى عن ازدحام الشوارع، وتهالك أتوبيسات النقل العام، وعربات الأمن المركزي المرصوصة في كل مكان تحسبًا لأي مظاهرة محتملة، تُذّكر نفسها بأن الصباحات الجيدة لا يمكن تعويضها لأنها كفيلة بتغيير حياة كاملة من التعاسة إلى السعادة.

هي لا تملك تعريفًا محددًا للصباح الجميل، إلا أنها تشعر به بمجرد استيقاظها، حين تجد نفسها أكثر انتباهًا من المعتاد، ذهنها أكثر صفاءً، والأفكار المزعجة التي تسيطر عليها عادةً تتراجع إلى الخلفية لبعض الوقت.

في هذه الصباحات كانت سلمى ترى العالم بعيون جديدة، يبدو من حولها ملونًا بألوان زاهية تذكرها بألوان الـ"Technicolor"، تلك الألوان التي قدمت العالم بشكل أكثر بهجة من حقيقته في الأفلام القديمة. هي لا تعرف على وجه الدقة: هل الأشياء تكون مختلفة بالفعل عن طبيعتها في الصباحات الجميلة؟ أم أن عقلها هو الذي يضفي عليها هذا الألق؟

تكره سلمى مترو الأنفاق على الرغم من أنه وسيلة مثالية في هذه المدينة المكتظة بالبشر، كانت إذا اضطرت للجوء إليه، تخرج مخنوقة ولا تسترد إحساسها بالحياة إلا مع خروجها من تحت الأرض. في هذه الأوقات يتحول العالم إلى عالم بالأبيض والأسود، أو ملون بألوان باهتة في أفضل الأحوال. لذا اعتادت أن تتجنب المترو في الصباحات الجميلة، تفضل عليه الميكروباص أو المينى باص – الذي يوصلها لأقرب محطة للجريدة التي تعمل بها– لأنها تريد أن تكون بين الناس، لهذا السبب لا تستخدم سيارتها الصغيرة إلا لمامًا، ولا تلجأ للتاكسيات إلا مضطرة، في التاكسي يكون عليها الاستماع لثرثرات لا نهائية من السائق.

وعلى الرغم من أن المسافة من المحطة إلى عملها لا تستغرق إلا خمس دقائق فقط، إلا أنها اعتادت أن تقطعها في ربع الساعة في الصباحات "الجميلة" لأنها تفضل التلكؤ، والنظر لما حولها بإعجاب وانبهار كأنها "أليس في بلاد العجائب".

يتحول منظر المتسول المتكوم فوق الرصيف إلى لوحة فنية جديرة بالتأمل، وتصبح الطفلة المتسخة التي تبيع المناديل الورقية في إشارة المرور

كائنًا يبعث على السرور لا الأسى. لا يلتقط أنفها رائحة عوادم السيارات، ولا تبصر عيناها الغبار الذي يغطي كل شيء في مدينتها. تنسى أيضًا كل شيء عن فشل علاقتها بظيا.

حين تصل إلى مدخل الجريدة، ينفتح الباب الزجاجي لها بمجرد اقترابها منه، ورغم اعتيادها على هذا بشكل يومي، إلا أنها تندهش في كل مرة ينفتح فيها الباب من تلقاء نفسه. تقول "صباح الخير" لموظف الاستقبال بصوت مبتهج فيرد عليها الرجل وهو يضغط على حروف كلماته بضيق:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

اعتادت أن تتجاهل نبرة موظف الاستقبال العدائية، ونظرته شذرًا لملابسها القصيرة، تتجه بسرعة نحو المصعد، تدخل مكتبها بهدوء، تتناول قهوة الصباح، وتنكب على قراءة القصائد والقصص التي عليها أن تجهزها للنشر. لم تكن صحفية بالمعنى الشائع للكلمة.

لم تكتب في حياتها مقالاً أو تحقيقًا واحدًا، إذ ينحصر عملها في الإشراف على صفحة أسبوعية مخصصة لنشر نصوص إبداعية في جريدة يومية، ولا تحظى بالاهتمام اللازم من قبل المسئولين عن الجريدة، لذا يتم اختصارها إلى نصف صفحة في الغالب رضوخًا لقوة الإعلانات.

من المفترض أن تقرأ النصوص، وتختار منها الصالح للنشر بعد مراجعته لغويًا، بالنظر إلى أنها قصص وقصائد فليس من حقها التدخل فيها بالحذف، أو الإضافة من دون الرجوع إلى مؤلفيها، إلا أن هوايتها

الأولى تمثلت في إضافة لمساتها الخاصة على هذه الأعمال خاصةً القصص، فالقصائد من الصعب العبث بها من دون أن ينتبه كاتبها، أما القصص ومع الحرفية العالية التي اكتسبتها من طول ممارستها لهذه الهواية فتبدو كأنها تتواطأ معها على كتّابها.

هي تنزعج بشدة من صيغ لغوية معينة، وتفضل عليها صيغًا أخرى، تستشيط غضبا إذا وجدت أخطاءً نحوية أو تركيبية في الجملة، تعمل على تصحيحها فورًا، تتعدى ذلك في أحيان كثيرة إلى تبديل مفردة اختارها المؤلف بمرادف آخر لها.

إذا حالفها الحظ تنجح في غرس مفردة من اختيارها في أكثر من موضع بالقصة، حينها تشعر بالسعادة لباقي اليوم وهي تحاول أن تحوِّل هذه المفردات معًا إلى جمل ذات مغزى بعيدًا عن سياقها في القصة، وإذا لم يحالفها، تكتفي باختيار مفردتين أو ثلاث بطريقة عشوائية، وتستبدلها بأخرى تحمل المعنى نفسه.

كانت تشعر بلذة غامضة وهي تضع بصمتها على تلك النصوص، وعلى الرغم من أن أحدًا من الكتّاب لم يكتشف ما فعلته، أو على الأقل لم يشتك منه، إلا أنها كانت تتمنى أن يتصل بها أحدهم للاعتراض، تمنت ذلك بشكل غير مبرر ولا منطقي غير أنه لم يحدث، ربما لأن معظم الكتّاب كانوا لا يقرأون قصة كتبوها، ويعرفونها تمام المعرفة بعد نشرها بحثا عن مفرداتهم، وربما لأن تعديلاتها كانت تجعل لغتهم أكثر رصانة وجمالاً.

كانت لا تجد أي صعوبة في التدخل في نصوص الآخرين، غير أنها حين حاولت فجأة أن تشرع في كتابة رواية خاصة بها، وجدت نفسها في مأزق حقيقي. كانت تحس أن كلماتها تفقد معناها، وتتحول إلى جثث مرصوصة بجوار بعضها البعض، أحيانًا أخرى ترى ما تكتبه غارقًا في الابتذال والرومانتيكية، مجرد "كيتش" خالص.

لم ترد سلمى من الحياة أن تحاكى الفن، إنما أرادتها أن تكونَ هي والفن شيئًا واحدًا. وتلك كانت مشكلتها الكبرى. تنظر للشخصيات حولها كشخصيات فنية، تراقب تصرفاتهم وهي منفصلة عنهم. تنزعج من كل التفاصيل الزائدة عن رؤيتها لما هو جميل وفني.

حين بدأت في الكتابة عن عائلتها وقفت محتارة، وجدت نفسها غير قادرة على الإمساك بجوهر شخصياتهم، حيرّتها تحديدًا شخصية والدها الجامحة. وجدت الفن غير قادر على الإمساك بخيوط هذا الجموح، حين تكتبه تجده بلا مبرر مقنع! الحياة قد تحتمل المبالغات وما هو زائد، أما الفن فلا.

شيئًا فشيئًا نسيت سلمى أن الغرض من الكتابة كان علاجيًا بالأساس بناءً على نصيحة طبيبتها النفسية، وانخرطت في محاولة شبه جادة لإنجاز رواية عن عائلتها.

كانت الطبيبة قد عرفت طبيعة عمل سلمى، بل كانت الشخص الوحيد الذي حكت له عما تفعله بنصوص الآخرين، فطلبت منها أن

تدون ما يخطر ببالها عن حياتها وحياة عائلتها، فطوّرت ابنة رشيد الفكرة إلى كتابة رواية!

لم تقرأ سلمى "التاريخ العالمي للعار" لبورخيس، وبالتالي لم تعرف شيئًا عن ذلك الذي لم يستطع أن يكتب قصصًا خاصة به، فسلى نفسه بتحريف وتشويه قصص الآخرين.

لكنها ومن تلقاء نفسها، قررت أن تنقل هوايتها من وضع لمساتها على القصص التي تنشرها، إلى تحريف سير وحيوات الأشخاص الواقعيين واللعب بها، خاصة وأنها كانت قد استقالت من عملها مع بداية مرضها.

كان هدف الطبيبة الأساسي أن تجعلها تكتب عن نفسها وحياتها لتكشف أمامها ما استغلق عليها، خاصة أن مريضتها كانت بارعة في التضليل وخلط الحكايات ببعضها البعض لدرجة حوّلت كل الجلسات بينهما إلى وقت ضائع. وجعلت كل الأدوية والأقراص شيئًا بلا طائل.

وحين أخبرتها سلمى أنها تنوي تحويل هذه الكتابات المتناثرة إلى رواية، لم تكن الطبيبة مقتنعة على الإطلاق أن مريضتها بحالتها تلك، قادرة على كتابة عمل أدبي مركب كالرواية. وندمت أشد الندم على اقتراحها الأولى بالكتابة، حين تحول إنجاز الرواية إلى هوس جديد تملّك سلمى، لدرجة تحولت زياراتها الشهرية للطبيبة إلى نوبات من الشكوى من المشكلات التي تواجهها أثناء كتابتها.

أصبحت الطبيبة تجاهد كي تجر سلمى للحديث عن لب مشكلتها؛ أي عن ظيا وهجره لها، وجميلة وعلاقتها المعقدة بها، إلا أنها في كل مرة كانت تُفاجأ بأن مريضتها تضيف إلى أو تحذف من الشخصيتين تفاصيل كفيلة بتحويلهما إلى شخصين آخرين.

أدركت المرأة بعد قليل من الوقت أن مريضتها تحدثها عن الشخصيتين الفنيتين لجميلة وظيا كما يظهران في روايتها المفترضة، لا عن الشخصيتين اللتين من دم ولحم.

لاحظت الطبيبة أيضا أن معظم ما دونته سلمى يرجع لفترة طفولتها، وأن جزءًا كبيرًا منه ينصب على شخصيتين اثنتين هما والدها وجميلة صديقة طفولتها، كان ثمة تداخل في رؤيتها لجميلة ولنفسها، تتكلم عن جميلة أحيانا كأنهما الشخصية نفسها، في فقرة واحدة تخلط جميلة بأناها أكثر من مرة، في أحيان أخرى تظهر صديقتها باعتبارها خائنة أو ضحية في تناقض صارخ لم تفهمه الطبيبة أبدًا.

-٥-

تنفض شجرة البونسيانا الضخمة في حديقة البيت زهورها الحمراء عنها كل يوم تاركةً الأرض تحتها مغطاة بركام من أوراق الزهور حمراء اللون التي يكنسها الخادم بدأب كل صباح.

تهتز أوراق البونسيانا مع النسيم الخفيف، فيفرد الغراب الأسود الذي يعشش فوقها جناحيه قبل أن يضمهما من جديد وهو ينعب ذلك النعيب الذي يضايق ثريا إذا استيقظت عليه في الصباح، إذ تعتبره نذير شؤم منذ أن صحت ذات يوم على نعيب لا ينقطع لغراب كان يعشش في شجرة ذقن الباشا التي كانت حجرتها في بيت العائلة تطل عليها، و لم ينته اليوم إلا وكانت شقيقتها لولاّ قد أصبحت جثة باردة بفعل الزرنيخ الذي تجرعته.

شجرة البونسيانا هذه تذكّر سلمى بشجرة ذقن الباشا الضخمة في فناء

بيت العائلة، تلك الشجرة التي سبقت زراعتها وفاة جدها عثمان بما يزيد قليلاً على العام.

كان قد اقتطع خمسة أغصان من شجرة ذقن باشا معمرة مجاورة للنيل وزرعها في فناء بيته على مسافات مناسبة. ولمدة عام لم تنبت هذه الأغصان أية براعم تثبت أن الحياة قد دبت فيها فقرر عثمان قطعها، وبالفعل نزع ثلاثة منها من الأرض وبينما يكسر أحدها مغتاظًا اكتشف أنه ليس يابسًا كما تخيل، بل دبت فيه خضرة الحياة فترك الغصنين الآخرين اللذين أورقا بعد شهور قليلة كان هو قد مات خلالها.

سنة بعد أخرى رسخّت الشجرتان جذورهما في باطن الأرض، تضخمتا وامتد ظلاهما حتى ظللتا معظم الفناء مكونتين مظلة عملاقة فوقه تكاد تحجب الشمس عن باقي النباتات المزروعة تحتها.

تشابكت أغصان الشجرتين بأوراقها الخضراء الداكنة التي تكون زاهية فقط في شهري مايو ويونيو، وحين تكون كل الأشجار مزهوة بخضرتها النضرة في الربيع، تقبع شجرتا ذقن الباشا في خريفهما الخاص بلا أي ورقة خضراء أو زهرة واحدة.

اعتاد جابر أن يُحضِر من يهذب أغصان الشجرتين سنويًا حرصًا منه على وصول الشمس لباقي النباتات في الفناء، لكن مع دخول الكهرباء للقرية اضطر لقطع معظم أغصان إحدى الشجرتين كي لا تتسبب أغصانها حين تهزها الرياح القوية شتاءً في تطاير الشرر الكهربائي من أسلاك كهرباء الضغط العالي القريبة منها.

في البداية رفض جابر أن يقطع الأغصان المجاورة لأعمدة الكهرباء، غير أنه غيّر رأيه بعد أن كادت الشجرة، وتحت تأثير الرياح تتسبب في حريق كبير في البيت، حين ضربت أغصانها أسلاك الكهرباء فتماس سلكان وصدر عنهما شرر هائل أنشب النار في كومة من الدريس اليابس ملقاة بمحاذاة سور الفناء من الداخل.

بعد قطع معظم أغصانها توقفت الشجرة عن النمو، ثم يبست تمامًا فقطعها جابر وركن جذعها الضخم خلف البيت بجوار بقايا عربة نقل البضائع الصدئة والمغطاه بغطاء من الشكائر القديمة.

حين تتذكر سلمى شجرة ذقن الباشا الضخمة التي بقيت، لا يرد على ذهنها جدها عثمان الذي لا تكاد تتذكر أي شيء يخصه، إنما تستدعى ذاكرتها فورًا جدتها "رحمة"، أو بالأحرى يوم أربعينها حيث تلال المشمش وشعيرات زهرة ذقن الباشا تتساقط فوقه.

كان ذلك في أول يونيو عام ١٩٨٤.. أشجار الفاكهة في بستان عمها سميح، المجاور لبيت العائلة، مثقلة بثمارها التي طابت، جاذبةً الدبابير والنحل والطيور التي تنقرها، ثم لا تلبث أن تمل وتطير صاعدة لأعلى، قبل أن تقف على أسلاك كهرباء الضغط العالي، تراقب ما يحدث بالأسفل.

شجرة "ذقن الباشا" الضخمة التي تتوج فناء البيت برداء أخضر زاهٍ ترقد تحتها تلال من المشمش بلونه الأصفر المتوهج، حجرة الخزين الواسعة أُخليت مساحة كبيرة منها، والساحة أمام الفرن البلدي تم تنظيفها تمامًا من أعواد القش والحطب، ورُشت بالماء لتكون المسرح الذي سيلعب

عليه "دياب" الطباخ دور البطولة، بمعاونة أوانيه الضخمة وموقده الكبير، ومساعديه الاثنين اللذين يتحركان بشكل أقرب للإنسان الآلي منهما للبشر.

المشمش مفروش فوق أفرخ من الورق الحراري الأصفر الذي أرسله رشيد من المصنع في الصباح، ولأن شجرة "ذقن الباشا" في بداية إزهارها في هذا الوقت من العام، تتساقط الأزهار من حين لآخر بشعيراتها الغزيرة على المشمش وأواني دياب، فيصرخ:"المكان ده مش ولابد خالص، هاشتغل ازاي دي الوقت؟"، لكنه يبتلع اعتراضاته ويهتز لُغده السمين حين ترمقه ثريا بطرف عينها غاضبة، فيبتسم لها قائلاً إنه سيعلمها صنفًا مذهلاً من لحم الضأن.

تبدو ثريا جميلة ونضرة في ملابس الحداد السوداء، وإن كانت مثقلة بالشجار الذي نشب في الصباح بين رشيد وسميح لأن الأخير اعترض على إعداد هذه الوليمة الضخمة في أربعين رحمة: "الناس هتاكل وشنا، فيه حد يعمل أكل وحلويات يوم الأربعين يا رشيد؟ ويجيب طبّاخ كمان؟ هي حفلة ولا كات حفلة؟".

غير أن رشيد لم يتراجع عما خطط له لأنه رأى في هذه الطريقة الاحتفالية خير وسيلة لتكريم أمه بعد وفاتها، وساعده أن جابر أيد فكرة إطعام الأعداد الضخمة التي ستأتي للعزاء، وإن كان قد تحفظ قليلاً على كثرة أصناف الحلويات وأطباق المشمشية لكن من دون اعتراض حقيقي.

كان من الممكن أن يمر اليوم على خير، لولا أن رشيد بنزقه المعروف صرخ في وجه سميح: "يا أخي هي كانت أمك ولا أمنا؟ أنت هتحزن عليها أكتر مننا؟"

نظر سميح إلى أخيه غير مصدق لكلماته القاسية وكعادته حين يغلى بالغضب لم يقدر على التفوه بكلمة واحدة، كظم حنقه.. عدل من وضع عباءته على كتفه، وخرج. لم يره أحد إلا في اليوم التالي.

"عشنا وشفنا الموت بيعملوا فيه حلويات، أمال الأفراح هيعملوا فيها إيه؟" سمعت ثريا هذه العبارة من إحدى الفلاحات اللاتي يغسلن الأواني، ويجلين الخشب لإيقاد الفرن البلدي فطردتها من الحوش كي تكون عبرة للأخريات.

هي نفسها لم تكن مقتنعة بما يحدث يوم أربعين حماتها، لكنها قررت أن اليوم يجب أن يمر على خير، وبالغت في شدتها مع الفلاحات، كما لو كانت هذه الشدة هي طريقتها الوحيدة لإقناع نفسها بهذا الصخب الدائر حولها.

بالنسبة للأطفال، كان هذا الحدث فرصة هائلة للمرح واللعب والتلصص على حجرة الخزين التي امتلأت عن آخرها بأصناف اللحوم والحلويات الشهية التي أعدها دياب الطباخ الذي اعتاد – كلما جاء في إحدى المناسبات المهمة– أن يطرد الصغار بعيدا عنه بما لا يقل عن ٣٠٠ متر.

كانت سلمى هي الوحيدة المسموح لها بالتواجد على مقربة، ربما لأنها الأصغر سنًا، وربما لأنها كانت كقطة وديعة صغيرة تتمسح في ملابس ثريا طوال الوقت من دون أن تثير أية جلبة.

كانت مجرد عينين نهمتين تكتفيان بالمراقبة، وذاكرة مهمتها الوحيدة تخزين أدق التفاصيل. لم يدرك دياب أنها كانت حصان طروادة الذي أرسله المشاغبون الصغار لسرقة ما لذ و طاب من أصنافه.

تتسلل للحجرة وتفتح شيش النافذة بهدوء.. تمرر صينية فارغة من بين قضبانها الحديدية، وتضعها على الإفريز الخارجي، ثم تنتقى بعض قطع الجاتوه، وتمررها لتضعها فوق الصينية، وتغلق الشباك من الداخل.

يتخاطف خالد وهيام وجميلة ومارجو الجاتوه من مخبئهم بالخارج بعد أن تكون سلمى قد خرجت لجلستها بجوار ثريا التي تكافئها على عدم شيطنتها بطبق مشمشية أو قطعة جاتوه.

حين جاء موعد الغداء نادت ثريا على باقي الأطفال وأجلستهم في صالة البيت في الجهة الأخرى من الحوش الواسع، وقدمت لهم قطع البفتيك والكفتة وأنواع المحاشي المختلفة، لكن الأطفال الذين كانوا قد أتخموا أنفسهم بالجاتوه المختلس، لم يقدروا على تناول أي طعام إضافي. كان يمكنهم منذ البداية أن يطلبوا من ثريا ما اختلسته سلمى لهم، لكن متعتهم الحقيقية كانت في فعل الاختلاس نفسه.

لم تشعر سلمى أبدا أن أحدهم قد مات حين توفيت جدتها رحمة تحت تأثير غيبوبة السكر.. كانت بالنسبة لها شخصا قويًا متحكمًا

لن يقدر حتى الموت على هزيمته، لسبب ما شعرت أن أمها على الرغم من ارتدائها السواد، وبكائها كانت مرتاحة بشكل أو بآخر لموت حماتها، بطلاق حكمت وموت رحمة أصبحت هي سيدة العائلة لأن خديجة زوجة سميح مستقلة بحياتها معه في بيتهمّا الصغير.. لا يتدخلان في شئون أحد، ولا يرغبان في أن يتدخل أحد في شئونهما، وبُشرى زوجة جابر الثانية رفضت رحمة أن تدخلها بيتها طوال حياتها لاعتراضها على زواجها من ابنها.

في المساء وصلت حكمت لتقديم واجب العزاء في خالتها، لم تكن حضرت عند الوفاة لأن زواجها الثاني لم يكن مضى عليه سوى أيام. جاءت بصحبة زوجها الجديد الثرى الذي يكبرها بحوالي عشرين سنة، بدت بشعرها الملموم للخلف في كعكة كبيرة، ومعطفها الأسود الطويل، كأنما تقول للجميع وخاصة جابر أنها أفضل حالاً الآن.

تخلت عن الطرحة الشيفون السوداء التي اعتادت أن تضعها بإهمال متعمد فوق رأسها، وبدأت في مسايرة الموضة بما يتناسب مع حياتها الجديدة في "طنطا"، لكنها لم تتخل عن عنادها ولا قوة شخصيتها.

بدا زوجها الجديد غير مرتاح لهذه الزيارة التي اضطر لها بدافع تأدية الواجب لا أكثر، لكنه حافظ على هدوئه خاصة أن الزيارة لم تدم لأكثر من ساعتين، تجاهلت حكمت فيهما زوجها السابق جابر تماما، وإن حرصت على أن يسمعها وهي تسأل ثريا عن بُشرى:

– أمال فين الخدّامة مش موجودة ليه؟

لم تدر ثريا كيف ترد عليها، فنظرت من طرف عينها لجابر بقلق قبل أن تغير دفة الحوار. غادر جابر المكان وقد قرر أن يحضر بشرى وابنتها لتقيما في بيت العائلة بداية من الصباح التالي.

***

منذ زمن بعيد جدًا فقدت رحمة اسمها للأبد وها هو الموت يرده إليها ويردها إليه.. الجارات كن ينادينها بأم جابر، وكل من في البيت يطلقون عليها بتبجيل لقب "أمه الحاجّة".. هي نفسها كانت تشعر أن اسمها الأصلي غريب عنها، وحين يحدث وينادِيها زوجها به تظل فترة قبل أن تدرك أنها المرأة المقصودة.

كانت في الخامسة عشرة من عمرها حين تزوجت عثمان زوج شقيقتها الكبرى التي توفيت على يد القابلة وهي تلد طفلها الثاني الذي وُلد ميتا هو الآخر، تركت خلفها ابنها سميح ذا الثلاث سنوات. وكي لا يتربى حفيده مع زوجة أب غريبة وافق والد رحمة على تزويجها من عثمان كي تعتني بابن أختها.

اُقتلعت الصبية من بيت أسرتها وجاءت كقطعة من جهاز العرس إلى عائلة أخرى لتكون زوجة لرجل يكبرها بأكثر من عشر سنوات كان زوجا لأختها المتوفاة.

في الحقيقة لم يكن هناك جهاز عرس جديد خاص برحمة لأنها دخلت على حجرة أختها المكونة من سرير نحاسي وكنبة تركي وصندوق ملابس

وكرسيين من خشب الكافور، وحين تلطخ منديل أبيض بدماء بكارتها ليلة زفافها زغردت أمها، وغادرت هي وأبوها عائدين إلى قريتهما.

غير أن رحمة لم تكن تلك المراهقة الغرة أو الضحية مسلوبة الإرادة، بل كانت امرأة ذات حيلة وبأس شديدين.. خليط غريب من القوة والمكر.

بعد مرور أقل من ثمانية أشهر على زواجها حرضت زوجها عثمان على الاستقلال بنصيبه من الأرض، وعندما تشاجر مع إخوته وأمه للخروج بالعشرة قراريط التي تخصه، حمّل الجميع زوجته الصغيرة مسئولية هذا الانشقاق لأنها – كالشيطان – هي من زين له ذلك وجرأه على تفتيت ممتلكات الأسرة.. وعقابًا لها على هذا الجرم أخرجتها حماتها من بيت العائلة بعد أن استولت على كل ما في حجرتها من سريرها النحاسي ذي الأعمدة والكنبة، وحتى أواني الطهي النحاسية والأطباق والملاعق.

عاشت رحمة لفترة من الوقت مع زوجها عثمان في "نوّالة" تخزين البطاطس الصغيرة – التي جاءت من نصيبه مع القراريط العشرة – إلى أن استطاعا بناء حجرتين من الطين اللبن.. كانت تغطى فتحات التهوية التي تملأ جدران النوّالة بالورق والأقمشة القديمة حتى لا يراها أحد وهي تبدّل ملابسها أو وهي تنام مع زوجها الذي بدأ يشعر أنها ورطته في مشكلة لا قدرة له على تحملها.

كانت رحمة تشعر أنها تعيش في عراء كامل.

اعتادت في تلك الفترة أن تستعير أواني الطهي من جاراتها، وفي أحد الأيام جلست تبكي بجوار النيل بعد أن ضاق بها الحال، ولم تفق من بكائها إلا على منظر مغرفة نحاسية تحملها المياه نحوها برفق وسط أوراق ورد النيل وزهوره البنفسجية وحشائش النهر وأعشابه وبقايا الأطعمة التي يعج بها.

كانت مغرفة جرفها الموج – في الغالب – من إحدى النساء اللاتي يغسلن أوانيهن على الضفة الأخرى للنهر، غير أن رحمة تعاملت مع الحدث باعتباره معجزة أو إشارة تأييد ودعم من السماء أو بالأحرى من جنيات النهر.

حكت لعثمان ما حدث، وهي تدمع من شدة التأثر.. قالت له إن هناك جنية من جنيات الأعماق تتعاطف معها.. سخر منها وأكد لها أن الجنيات هن عفاريت من نسل الشيطان يكرهن البشر ويدبرن المكائد لهم، وأن المغرفة هي من عند الله.

وقتها كانت القرية تغرق بكاملها أثناء فيضان النيل في الصيف، تدخل المياه إلى البيوت وتغمر الأراضي الزراعية التي كانت ما تزال مرتفعة، ولم يتخيل أحد أنها ستُجرّف تمامًا في يوم من الأيام.

كانت رحمة قد تزوجت عثمان في بداية الأربعينيات، وبعد انفصاله عن عائلته، زرعت معه العشرة قراريط خضروات، لم يكن لديهما مواشٍ لذا فلم تكن مضطرة لزراعة برسيم وما إلى ذلك، اكتفيا بزراعة بطاطس، وبازلاء، وطماطم وغيرها من الخضروات التي تبيعها في أسواق القرى

القريبة على مدار أيام الأسبوع. وتعود من السوق إلى الأرض مباشرة لتساعده فيها، ولا تدخل بيتها إلا في المساء.

بعد ثورة يوليو وقوانين الإصلاح الزراعي خرجت بفدانين إضافيين شكلا النواة للثروة القادمة. لم تتخل عن زراعة الخضار، وإن وسّعت في أنواعه، كما حثت زوجها كي يذهب لبيعه للتجار في الإسماعيلية وبورسعيد وغيرهما من المدن حيث الأسعار أكثر ارتفاعا عنها في الريف.

حين كانت ما تزال تسكن في النوّالة، لم يكن يضايقها أن يمتلئ المكان حولها بالبطاطس المخزنة، اعتادت أن تدبر شئونها في ركن ضيق تعيش فيه مع ابن أختها سميح ورضيعها جابر.

قبل نقل محصول البطاطس لتخزينه في النوّالة تمهيدا لبيعه، كانت تسهر حتى وقت متأخر من الليل بجوار أكوامه على رأس الحقل، معها مصباح كيروسين يطفئه الهواء من وقت لآخر، فتعيد إضاءته، يلح عليها عثمان كي تعود معه للنوّالة، وحينما ترفض خوفا على المحصول من السرقة بعد أن قضيا النهار كله في جمعه من خلف المحراث الذي يحرث الأرض كاشفا عن الثمرات الراقدة في باطنها، يغادرها وحده. يأخذ الطفلين من الجارة، ويدخل النوّالة كي ينام.

يذهب للحقل مبكرًا ومعه الطفلان، فيجدها قد تكومت على الأرض بجوار كومة البطاطس كيفما اتفق، تستيقظ هلعة حين تشعر بالضجة التي يثيرها زوجها، وبعد قليل تذهب للبيت كي تجهز الفطور وتعود به للحقل.

جابر كان وحده الذي وُلِد في النوّالة، فرشيد ومن بعده نظلة وُلدا في البيت الذي بنته حجرة حجرة مع زوجها، هذا غير أربعة أطفال آخرين ماتوا رضعا.

حين كبر سميح بدأ يساعد خالته وأباه في الزراعة، لكن "جابر" ومنذ أن بلغ العاشرة من عمره أصبح هو اليد اليمنى لأمه في إدارة الأرض والبيت، كان قد ورث روحها القيادية ودأبها على العمل، أما سميح فكان أقرب إلى أبيه.. ذلك النوع من الأشخاص الذي يحتاج لمن يأخذ بيده ويرشده لما يجب أن يقوم به، كان شغيلاً ونشطًا، لكنه يمتلك عقلية جندي لا قائد.

شيئا فشيئا وبفضل حسن تدبيرها استطاعت رحمة أن تضيف المزيد من القراريط لأرضها هي وزوجها، كما اشترت بقرتين وجاموسة، وبدأت توسع دائرة تعاملاتها مع تجار الخضروات الذين بدأوا يتوافدون على بيتها الذي اتسع ليضم ثلاث حجرات ومندرة وقاعة كبيرة.

في تلك الأيام البعيدة كان يمكن لأهالي القرية أن يروا مندرة البيت مليئة بالزوار القادمين من مناطق بعيدة لقريتهم النائية للاتفاق على شراء محصول الموسم القادم، ولتوسيط أم جابر كما كانوا يطلقون عليها كي تتفق لهم مع غيرها من المزارعين لشراء محاصيلهم.

يجلس عثمان مرحبًا بالضيوف باعتباره رجل البيت. فرحمة كانت حريصة دائما على وضع زوجها في صدارة المشهد باعتباره الآمر الناهي في كل شيء، لكن الجميع كان يعلم أنها هي من لها الكلمة الأخيرة،

حتى لو كانت "لزمتها" الدائمة عند أي اتفاق "ربنا يسهل.. ها شاور أبو سميح و أرد عليكم".

بدأت رحمة تدريجيًا تحظى بتقدير واحترام كل من في القرية، في البداية لم يستوعب أحد كيف تمتلك تلك المرأة الصغيرة هذا القدر من البأس والمثابرة، لم يتقبل كثيرون شجاعتها التي تدفعها للنوم ليلاً في الحقل بجوار المحصول، لكنهم ومع نجاحها في مساعدة زوجها على زيادة أرضه وتنمية ميراثه القليل بدأوا ينظرون إليها نظرة مختلفة، "مرة بميت راجل" هكذا كانوا يعلقون إذا جاءت سيرتها.

-٦-

في "الفراندة" تجلس ثريا بجوار نظلة كصديقتين قديمتين، أو كأرملتين للزوج نفسه. أرملتان وضعهما موت زوجهما المشترك أمام حقيقة أنه لا داعي للضغينة المتبادلة أكثر من هذا.

تميل رأس إحداهما تجاه رأس الأخرى كأنما تعانيان ضعفًا في السمع، تتهامسان بكلمات تقطبان على أثرها، أو تبتسمان وتكتمان ضحكة ترغب في الانطلاق فجأة، أو أي شيء آخر تفعلانه معًا بتوافق مدهش.

لطالما تضايقت سلمى من غيرة أمها غير المبررة من عمتها وحقدها الدفين عليها، غير أن الصفاء التام الذي يكتنف علاقتهما الآن يضايقها أكثر. أين ذهبت الكراهية؟ هل تآكلت بفعل الزمن؟ أم أن الإنسان

حين يتقدم به العمر يكون خسر بما فيه الكفاية، وتعلم أن لا شيء يبقى فيدرك سخافة كل ما كان يفعله أو يؤمن به؟

لا تعرف سلمى ولا يهمها في الحقيقة أن تعرف الإجابة عن هذه الأسئلة، ما يقتلها الآن هو رؤية هاتين المرأتين منكبةً إحداهما على الأخرى بود رغم أن موت أبيها المأساوي لم يمض عليه سوى عام واحد، صحيح أنهما لا تزالان ترتديان الملابس السوداء، وحزينتين كما ينبغي لهما أن تكونا، إلا أن هذه الهمسات الضاحكة الموحدة بينهما تطردها هي إلى هوة سحيقة بعيدًا عنهما، وتذكرها بالعلاقة الوثيقة بين أمها وشقيقتها هيام، تلك العلاقة التي لطالما جعلتها تؤمن في طفولتها بأن أمها تفضل شقيقتها عليها. بدأت تتمنى لو تأتي هيام فجأة بأولادها كعادتها، فعلى الأقل هي الوحيدة القادرة على جذب اهتمام ثريا تماما بعيدا عن نظلة.

أحيانًا تفكر أن وجود أبيها بين المرأتين كان يعطل نمو علاقتهما نحو هذه الدرجة من التآلف. يمكنهما أن تظلا هكذا لساعات من دون أن تنتبها لوجودها تراقبهما، تتذكران معًا أحداثًا قديمة مرت بهما وتضحكان، هي ذاتها الأحداث التي لما كانت نظلة تبدي أي رد فعل عليها، في حين اعتادت ثريا أن تموت غيظًا بسببها، لكنها الآن تحولت إلى مجرد أشياء ضبابية وُجِدت فقط كي تتندر عليها الاثنتان.

تجلس سلمى على مقعد البامبو عاكفةً على أوراقها محاولةً أن تتجاهل الضجيج الذي تحدثه الجرارات الآتية من والذاهبة إلى مصنع أبيها..

وأصوات العمال المختلطة ببعضها البعض مخلفةً ضجة غير مريحة خاصة مع امتزاجها بصوت "الخلاّط".

"هل أبى سعيد الآن؟" تتساءل بينها وبين نفسها، هي لا تدرى ما الذي دفع شخصًا مريضًا تخطى الستين بسنوات للجري مجددًا وراء حلم قديم سبق وأن تخلى عنه؟ تعرف أن عليها أن تفهم سبب ذلك إذا أرادت أن تكتب روايتها عنه.

تعود بذاكرتها إلى منتصف الثمانينيات، كانوا قد انتقلوا إلى البيت الأبيض الجديد منذ فترة قصيرة، تتذكر جلساتهم الصاخبة في الفراندة، أمامهم أطباق كبيرة ملأى بالبرقوق والموز والتين الذي تعشقه عمتها نظلة، تتقافز هي وباقي الأطفال هنا وهناك، يشربون اللبن يليه الكركديه المثلج أو الينسون الساخن.

كان رشيد قد أصدر أمرًا مضحكًا للبنات الصغيرات بألا يشربن الشاي لأنه سوف يجعل أنوفهن تطول، وبالتالي يتحولن إلى مخلوقات قبيحة، ورغم أن الأمر كان مجرد مزحة إلا أنهن صدقنها ورفضت هي وهيام ومعهما جميلة تناول الشاي لفترة لا بأس بها من حياتهن.

خالد المراهق يتجادل بشدة مع هشام الذي يراسل فتاة ألمانية يرغب في السفر إليها حين يكبر، "نظلة" صامتة أغلب الوقت وتأكل ثمرة تين من وقت لآخر وهي شاردة، ثريا تثرثر بصوت منخفض مع بشرى زوجة جابر في موضوعات شتى، فيما ينصت رشيد وجابر بكل حواسهما

بالداخل للصوت الأجش لملك إسماعيل وهي تهاجم مصانع الطوب الأحمروتجريف التربة في برنامجها التليفزيوني "على الطريق".

كانا يضربان كفًا بكف مندهشين وغير مصدقين للتأكيدات التي بدأت تتردد بقوة عن قرب إغلاق كل مصانع الطوب الأحمر (٥) حفاظًا على الأرض الزراعية. ينتهي البرنامج فيظلان يتناقشان حول ما جاء به قلقين. وكعادته يقاوم رشيد مشاعره هذه بالسخرية حتى من نفسه، يخرج ليتوسط الجالسين في الفراندة، ويتبعه جابر الذي لم يتغلب على توتره بعد.

وقتها كانت سلمى في حوالي التاسعة من عمرها، تستمع إلى المذيع في إعلان صابون لوكس" وهو يقول بصوته الرخيم:"نستاسيا كينسكي تستعمل لوكس فلماذا لا تستعملينه أنت أيضًا؟".

تشاهد حملات التوعية البلهاء بتنظيم الأسرة وأخطار البلهارسيا، تبحث مع حسن عابدين عن "سر شويبس"، وتقلد رقصات "شيريهان" واستعراضاتها في فوازير رمضان.

لم يكن ذنب سلمى أن وعيها كطفلة تفتّح في الثمانينيات، هي مجرد مصادفة تاريخية بحتة أن يولد شخص ما في النصف الثاني من السبعينيات، ليعيش معظم سنوات طفولته في واحد من أكثر العقود بلادة.

ليس ذنبها بالتأكيد، إلا أنه مشكلتها الكبرى علي الرغم من ذلك.

---

(٥) أُغلقت مصانع الطوب الأحمر بقرار رسمي بداية من أغسطس ١٩٨٥.

ماذا تتوقعون من طفلة الثمانينيات تلك؟ هناك لم يكن إنترنت، ولا بلاي ستيشن، كيف يمكن لأحدهم أن يعيش بلا محرك البحث جوجل أو قناتي ديزني وسبيس توون؟! ثم كيف نثق في حكمه على العالم والأشياء؟! لم يكن هناك سوى الأتاري التي يحضرها هشام معه في زياراته لأبيه كل صيف، وإعلانات طارق نور، الخطط الخمسية المزعومة، الكلام المتواصل عن البنية التحتية، مسلسلات "أبو العلا البشرى"، "الشهد والدموع"، و"يا أهلا بالسكان"، والهوس بعام ٢٠٠٠ كأنما سيأتي ليغير كل شيء، ويمنحنا حياة أخرى جديدة على طريقة "انسف حمامك القديم".

في ذلك الوقت كانت سلمى الطفلة منغمسة انغماسًا تامًا في كل هذا من دون أن تدرك الوضع على حقيقته، حتى بعد إغلاق مصنع الطوب الأحمر كانت فرحة جدًا بتواجد أبيها شبه المستمر في البيت معهم، وبالجلسات الصيفية الرائعة في "فراندة" بيتهم مع أكياس اللب والمكسرات أمام مسلسل السابعة مساءً على القناة الأولى.

لم تعرف إلا بعد سنوات أن هذه الفترة هي الأسوأ في حياة أبيها وعمها وكل العاملين في مصانع الطوب الذين وجدوا أنفسهم بعد إغلاقها في الهواء الطلق.

كانت المنطقة بكاملها تعتمد على مصانع الطوب سواءً ملاّكها أو العاملون فيها، أو حتى المزارعين الذين استمروا في زراعة أرضهم بعد تجريف طبقات منها والاستفادة بالأموال التي حصلوا عليها مقابل ذلك في بناء بيوت حديثة فخمة، بعض هؤلاء اشتروا حميرًا أو بغالاً يعلفونها

جيدًا ويؤجرها منهم أصحاب المصانع كي تجر العربات الصغيرة التي تنقل الطوب "الأخضر" من "المناشر" التي يجف بها إلى الفرن لحرقه. كثير من هذه البيوت كانت تعيش على المبلغ الذي تحصل عليه أسبوعيًا جراّء تأجير حمار أو بغل تملكه، ومع إغلاق المصانع شعر الجميع بالخراب الذي حاق بهم.

جابر بطبعه العملي لم يتوقف كثيرا للتحسر على ما فات حيث بدأ من فوره في دراسة كيفية تحويل إنتاج المصنع إلى الطوب الطفلي بدلا من الأحمر. كانت عملية التحويل وشراء الماكينات ستكلفه مليون جنيه، وهو مبلغ لم يكن هينًا بحسابات أواسط الثمانينيات، لذا قرر أن يتأنى في كل خطوة يخطوها ضمانًا للنجاح.

لم يشتر ماكينات صينية كغيره من ملاّك المصانع في القرى المجاورة، واشترى ماكينات ألمانية رغم غلو سعرها مقارنة بالصينية، حاول إقناع رشيد أن ينضم إليه تقليلاً لحجم المخاطرة إلا أن الأخير لم يكن قد تجاوز صدمته بعد.

كان ناقمًا على الدولة لما فعلته بمصانع الطوب الأحمر وأصحابها، آلمه أن تتم معاملتهم كما يُعامل الخارجون على القانون والمجرمون، ارتد من فوره لشخصيته التي ترى أن العالم لا يعامله كما ينبغي له أن يفعل، وأنه (أي العالم) مدين له بالكثير، بدا كأنما يرى أن رفضه لمشاركة أخيه في مصنع الطوب الطفلي هو الرد المناسب من ناحيته على كل "الظلم" الذي يتعرض له.

لم يخرج رشيد من المصنع كليةً، إذ كان يمتلك نصف الأرض المقام عليها. بعد أن أعاد جابر افتتاح المصنع محولاً إياه لإنتاج الطوب الطفلي، تم حساب قيمته بما عليه من معدات ومبانٍ وحساب قيمة الأرض التي يملكها رشيد، وتوصلا بعد جلسة طويلة حضرها عدد من المحكمين من أعيان المنطقة إلى أن نصيب رشيد في المصنع الجديد بمعداته هو ثلاثة قراريط فقط. هذه القراريط الثلاثة هي كل ما خرج به رشيد من عملية "التطوير" كما يسميها جابر، ورغم أنه هو الذي رفض أن يشارك أخاه "جابر" مشاركة كاملة، بدأ رشيد يتصرف كأنه تعرض لعملية نصب من جانب أخيه، أو كأن الأخير هو الذي تسبب في إغلاق المصنع وخرّب كل شيء كما اعتاد أن يردد في تلك الفترة.

بعد ما يقرب من سنتين كان جابر قد أدرك أن قرار تطوير المصنع كان أفضل قرار اتخذه طوال حياته، إذ بدأ يجنى أرباحا وفيرة خاصة أن عدد من حولوا مصانعهم إلى الطوب الطفلي لم يكونوا بالكثرة اللازمة لخفض سعره. في هذا الوقت حاول رشيد أن يقنع أخاه بأن يبيع له نصف المصنع من دون جدوى، كان جابر تاجرًا بكل ذرة في جسده، لم يكن مستعدًا للتخلي عن جنيه واحد يملكه حتى ولو لأقرب الناس إليه. كان مقتنعًا تمامًا أنه أعطى شقيقه الأصغر فرصته كاملة قبل البدء، بل ونصحه أكثر من مرة فيما بعد أن ينشئ لنفسه مصنعًا مستقلاً قبل أن تنفد نقوده على ما لا طائل من ورائه، إلا أن رشيد –على ما يبدو– لم يُرِد شيئا أكثر من مجرد العودة لوضعهما السابق كشقيقين يتشاركان في المصنع ذاته ويكمل أحدهما

الآخر، هو بعلاقاته وقدرته على جذب أكثر الزبائن ثراءً، وشقيقه بجهده المتواصل وكفاءته في الإدارة.

لم يدرك رشيد أبدًا أن العالم كان قد خطا بضع خطوات للأمام تاركا إياه خلفه، تمامًا كما يحدث مع ابنته سلمى الآن، غير أنها أكثر حظًا منه، لأنها تدرك حقيقة وضعها، أو على الأقل هذا ما تظنه هي.

استمر في الخروج من مشروع فاشل للدخول في آخر أكثر فشلاً من دون أن يغير من نمط استهلاكه، رغم عدم خبرته بالزراعة قرر مثلاً في أحد الأعوام أن يزرع كل الأرض التي يملكها بطاطس، حذره أخوه سميح من هذه المخاطرة لأن أسعار البطاطس كانت مرتفعة في الموسم السابق الأمر الذي سيدفع معظم الفلاحين لزراعتها مما سيؤدى لانخفاض سعرها.

بعد جهد كبير نجح سميح في إقناعه بزراعة خمسة فدادين فقط وليس كل الأرض. تحققت نبوءته وانخفضت أسعار البطاطس لدرجة أن سعر محصول الفدادين الخمسة لم يكن ليغطى تكلفة جمع الأرض ونقل محصولها للتجار، ناهيك عن تكلفة التقاوي والسماد. لذا لم يؤجر رشيد أنفارًا للحصاد، إنما أخبر الفلاحين أن بإمكانهم الحصول على ما يرغبون به من البطاطس إذا ما جمعوها بأنفسهم من الأرض، فتدافعت حشود كبيرة للأرض مصحوبة بالأبقار التي تجر محاريث أخذت تشق باطن التربة كاشفةً عن حبات بطاطس متنوعة الأحجام يعلوها التراب.

كان عدد الحشود يتزايد يوميا داخل الأرض، حصلوا على كميات كبيرة من المحصول، ونقلوا ما تبقى – وكان عددًا كبيرًا من الشكائر–

إلى بيت رشيد الذي طلب منهم أن يرصوا الشكائر فوق بعضها البعض في المنطقة الخلفية من الحديقة. قام بتوزيع كمية كبيرة من الشكائر على أقاربه ومعارفه رافضًا بيع أيا منها رغم إلحاح زوجته ثريا التي جعلت من البطاطس بأصنافها المتنوعة الطبق الرئيسي في البيت لشهور كأنما تعاقبه على خسارته، ومع هذا لم تنجح هي بأصنافها المختلفة، ولا هو بجهوده في توزيع الشكائر على كل من يعرفهم ومن لا يعرفهم في القضاء على تل البطاطس المتكوم في خلفية الحديقة، والذي بدأ يتعفن مخلفًا رائحة كريهة زادتها حرارة الجو تركيزًا فاضطر للتخلص من دليل إخفاقه فورًا.

بعد هذه الكارثة اقتنع بالعودة لتأجير كل الأرض التي يملكها ومعها نصيب أخته نظلة كما كان يفعل في السابق، وبهذا يحصل على مبلغ سنوي لا يستهان به يضاف للإيراد الأسبوعي للثلاثة قراريط التي يملكها في المصنع، ولرصيده المرتفع في البنك، لكن ثريا كانت قلقة بسبب تبذيره الشديد الذي قد يقضي على كل ما يملك في سنوات معدودة.

رغم هذا القلق المصحوب بإلحاحها المستمر كي يغير من نمط إنفاقه، لم يحاول رشيد مطلقًا أن يرشد استهلاكه، بل استمر في سلسلة مجنونة من الأفكار الخاصة بمشاريع رأى أنها ربما تعوضه عن خسارة نصيبه في المصنع.

تارة يؤجر سوق المواشي في المركز من الدولة ثم لا يلبث أن يمل رغم المكاسب الكبيرة التي حصدها جراء ذلك، وأخرى يفكر في إنشاء مصنع صغير للمكرونة في طنطا، وثالثة يبدأ في استقبال زوّار غامضين بشكل

شبه يومي ويجلس معهم لوقت متأخر من الليل في مناقشات طويلة، قبل أن يعلن أنه سوف يشاركهم في مصنع للكتان، إلى آخر سلسلة طويلة من الأفكار التي يعلنها ويظل مشغولاً بها لفترة طويلة، ثم لا يلبث أن يهجرها لأفكار أخرى لم تتقدم أي منها خطوة واحدة لتصبح مشروعا قائمًا على أرض الواقع.

إلا أنه وبعد سنوات عديدة، تحديدًا بمجرد علمه بمرضه الخبيث، قرر فجأة أن يبنى مصنعًا جديدًا للطوب الطفلي على مساحة ثلاثة أفدنة من البستان المحيط بالبيت، وفي سبيل ذلك اقترض مبلغًا كبيرًا من البنك بضمان الأرض التي يملكها هو وشقيقته نظلة.

***

إذا قُدر لأحدهم يومًا أن يسير بجوار النيل، في تلك البقعة النائية من وسط دلتا النيل، سوف يرى حتما بقايا بستان برتقال ونخيل، كان يشغل حوالي خمسة أفدنة من الأراضي الملاصقة للنهر قبل أن يتحول فدانان منها إلى مصنع جديد للطوب الطفلي يغطى بضجيجه على كل ما حوله، لو دقق النظر سوف يبصر بيتًا جميلاً أبيض اللون يجاوره ثلاثة أبراج حمام باللون نفسه.

هذا هو البيت الذي بناه رشيد حين رغب في الاستقلال بحياته عن بيت العائلة الكبير الذي جدده أخوه جابر واحتفظ به لنفسه مع زوجته الثانية بُشرى وابنتها جميلة، وأحيانا ابنه هشام الذي يزوره في الصيف.

هو نفسه البيت الذي نزلت سلمى رشيد درجات سلالمه الثماني كنمرة هائجة بعد ما يقرب من ربع قرن على بنائه، والذي يتوسط بقايا بستان البرتقال والنخيل ومحاط بحديقة صغيرة مزروعة بشجيرات القرنفل البلدي، والورد، والياسمين وبعض أشجار الجوافة والتفاح والليمون، وله طريق خاص يُخرج ساكنيه من البستان.

من يجلس في شرفته في أحد ليالي الصيف سيسمع نقيق الضفادع المتواصل، وسيُلدغ أكثر من مرة من الناموس الذي لا تمنعه الصواعق المنتشرة في الحديقة – تئز من وقت لآخر حين تصعق حشرة ما– من التجول بحرية لمص ما يحتاجه من دماء. في الظهيرة تزحف السحالي بهدوء بين النباتات، وينتشر النمل الفارسي الذي يجرى بدأب فوق التراب.

هذا البيت شغل اهتمام أهالي القرية لوقت طويل بعد أن بناه رشيد– على غير عادة الناس في قريته – بالاستعانة بمصطفي شقيق زوجته ثريا المهندس المعماري. أطلقوا عليه متهكمين "البيت الأبيض" وأحاطوه بالأقاويل والشائعات خاصة مع ما اشتهرت به شخصية صاحبه من خروج على المألوف لهم.

يقولون مثلاً إن رشيد يستقبل فيه راقصات ونساء يحضرهن من طنطا والقاهرة كي يجالسنه هو وأصدقاءه في سهرات الشراب شبه اليومية، وأنه متخم بسجاجيد فارسية أصلية وتحف لم يرها أحد من قبل، لو تجاهلنا شائعات السجاجيد والتحف هذه سنجد أن الشائعة الأولى سخيفة تماما، لا لأن رشيد "ليس هذا الرجل"، لكن لسبب بسيط آخر هو كيف يجلب

نساء أو يقيم سهرات حمراء في منزله بوجود زوجته وأبنائه وشقيقته "نظلة" معه في البيت نفسه؟ أليس من الأفضل له أن يمارس مجونه المفترض بعيدًا عن أعين ثريا؟

لا يتردد على البيت الأبيض عادة إلا أفراد عائلتي رشيد وثريا وبعض من أصدقاء رشيد المقربين، يتم استقبالهم معظم الوقت في غرفة الجلوس الكبيرة ذات الباب الذي ينفتح على الفراندة الواسعة والحمام المنفصل، بحيث لا يحتاج الضيوف من خارج العائلة لدخول البيت نفسه من الداخل.

لو دخل هؤلاء لاكتشفوا الأخطاء الرهيبة التي ارتكبها مصطفي في تصميمه للبيت، هو مثلا ورغم وجود طرقة واسعة وطويلة لم يجعل أبواب غرف النوم تنفتح عليها كما هو متبع، بل على الصالة الفسيحة التي يوجد بها أكثر من ستة أبواب الأمر الذي جعل الاستفادة من مساحتها الكبيرة أمرًا بالغ التعقيد، فالأبواب الكثيرة لم تترك فرصة أو مساحة لطقم الأنتريه الفخم الذي تناثرت كنبتاه وكراسيه على مسافات متباعدة عن بعضها البعض.

ترك مصطفي الطّرقة الطويلة الواسعة بلا فائدة تذكر.. مجرد ممر يصل بين الصالة والجناح الآخر من البيت الذي بُنى في مستوى أكثر انخفاضًا من الأول بحيث تنزل له عبر أربع درجات رخامية، لتجد صالة مستطيلة كرر فيها مصطفي خطأه الأول نفسه، وثلاث غرف واحدة منها للخزين، وحمام ومطبخ كبيرين.

اعتادت ثريا أن تسمى هذا الجناح "الشقة اللي تحت" لتمييزها عن الجناح الذي يقيمون به. الجزء الوحيد الذي صممه مصطفي بمزاج فنان حقيقي كان غرفة نظلة في الجناح العلوي؛ حيث جعلها متسعة كباقي غرف البيت، لكنه خصها وحدها بشرفة خاصة بها تنفتح بسلالمها على الجزء الخلفي من الحديقة المزروع بأشجار جوافة تتخللها نبتات القرنفل، أضافت إليها نظلة شجيرات ريحان ونعناع ونرجس، هذا غير الياسمين الذي يحيط بشرفات البيت كلها.

***

اعتاد رشيد أن يستيقظ في الحادية عشرة صباحًا (في الثانية ظهرًا يوم الجمعة)، يدخن سيجارة بمجرد استيقاظه من النوم، بعد نصف ساعة تقريبًا يتناول إفطاره المكون عادة من بيض وفول بالسمن البلدي وجبن قريش وشاي.

يتناوله وهو في الفراش ما يزال، وغالبًا ما تشاركه فيه سلمى أثناء أجازة الصيف حيث لا تضطر للاستيقاظ باكرا من أجل الدراسة، بعد الإفطار ومداعباته الصباحية معها تنصرف بسرعة في حين يغلق الباب على نفسه ويخرج قطعة حشيش من درج الكومود المجاور ويضعها في المبخرة ويشعل النار فيها، يضع على رأسه فوطة ويقرب وجهه من قطعة الحشيش المحترقة مستنشقا الدخان الطالع منها محافظاً على الفوطة التي تغطى رأسه والمبخرة معًا كأنها خيمة صغيرة، حين ينتهي من ذلك تكون

الغرفة بكاملها تعبق بالرائحة المميزة ويكون هو قد وصل إلى (الدماغ) التي يريدها.

يدخل ببطء للاستحمام.. ويخرج مرتديًا جلبابًا نظيفًا وفوقه عباءته البنية، يركب سيارته المرسيدس متوجهًا لمصنع الطوب الأحمر في الناحية الأخرى عند مدخل القرية، وقتها لم يكن قد أُغلق بعد. حين يصل إلى هناك يجلس في المكتب ليتحدث مع جابر، يراجع مع السائقين آخر أسعار المازوت وسعر الألف طوبة مقارنة بسعر نقلة التراب الذي يتزايد يوما بعد آخر.

"شغلانة ما بقتش جايبة همها" يردد جملته الأثيرة في تلك الفترة، وهو يتابع عبر النافذة المفتوحة عمال التحميل يحملون الطوب الأحمر فوق المقطورات المركونة أمام أبواب الفرن.

حينئذ كانت الحكومة تشدد إجراءاتها المانعة لتجريف الأراضي الزراعية، وذلك قبل وقت قليل من قرار إغلاق كل مصانع الطوب الأحمر تمهيدًا لتحويلها إلى مصانع للطوب الطفلي لمن يقدر على تحمل تكاليف هذا التحويل، أو التطوير وفقًا للغة الحكومة التي لطالما آمن رشيد أنها لا تتذكر المواطنين إلا من أجل مصائب سوف تلحقها بهم.

حين كانت القرية غارقة في الظلام دون كهرباء أو ماء أو صرف صحي لم يكن أحد من موظفي الدولة يعترف بوجودها أصلا. المسئول الكبير الذي ذهب إليه جابر ورشيد لإقناعه بإدخال الكهرباء لقريتهم تهكم

بأنه لا يستطيع تكليف الدولة مبالغ طائلة من أجل مكان غير موجود على أكثر الخرائط تفصيلاً.

قام مسرعًا ببذلته الصيفية الشبيهة بتلك التي كان عبد الناصر يرتديها، وأحضر خريطة كبيرة للمحافظة، فتحها أمام الرجلين المندهشين طالبًا منهما أن يشيرًا إلى موضع قريتهما عليها، دقق رشيد النظر للخريطة، وأشار بإصبعه إلى نقطة خالية، فبادره الرجل الذي يتكلم بسرعة كبيرة "شفت، حاجة ما لهاش اسم، يعني مش موجودة، بذمتك أنت عمرك جالك جواب عليها؟ ده مكان مش معترف بيه صدقني".

يفكر رشيد طالما أن قريتهم مكان غير معترف به من وجهة نظر الدولة، لماذا إذًا تلاحقهم بالضرائب، وبالأحكام القضائية بسبب تجريف التربة؟

غير أنه الآن وبعد ثلاث سنوات من دخول الكهرباء ليس من حقه أن يطرح هذا التساؤل على إطلاقه. صحيح أنه وجابر دفعا ثمنًا باهظًا لهذه الكهرباء إلا أنها دخلت على أية حال.

المسئول ذو البذلة الصيفية تغيرت لهجته تماما، بعد أن دعاه رشيد إلى وليمة فاخرة في بيت العائلة، وبعد أن حصل على رشوة ضخمة له ولآخرين غامضين لم يسمهم، لكن لابد وأنهم على نفس درجة أهميته إن لم يكونوا أكثر أهمية.

في البداية اقترح الرجل عليهما، نظرًا لصغر مساحة القرية وقلة عدد سكانها، أن الدولة يمكنها تقليص ميزانية أعمدة الإنارة بتوصيل أسلاك

الكهرباء المكسوة عبر الأشجار، لكن "جابر" ، مدركًا أنه وشقيقه أصبحا الطرف الأقوى في هذه المعادلة، صمم على وجود أعمدة الإنارة، كما اشترط أن يكون محول الكهرباء أقوى من المحولات في القرى الأكبر، وبالفعل تحقق له ما أراد وسط رقص وغناء الفلاحات، وخلال سنتين أو ثلاث دخل التيار الكهربي كل بيوت القرية الجديدة المبنية من الطوب الأحمر بعد أن جرف أصحابها أراضيهم وباعوا ترابها للمصنع الذي التحق معظمهم للعمل فيه كأنفار للتحميل والتنزيل أو كعمال لنقل الطوب الأخضر إلى الفرن بعربات صغيرة تجرها الحمير والبغال.

كان رشيد يراقب عبر نافذة المكتب العمال الذين يبدون كأسراب نمل دءوب ونشطة، ويراجع دفاتر الحسابات بسرعة، قبل أن يطلب من جابر ألفا أو ألفين من نصيبه في الإيراد "يسلّك بيهم نفسه" كما يقول، يعطيه جابر النقود على مضض لعلمه أنه سينفقها في اليوم نفسه على لا شيء.

من يتأمل علاقة رشيد وجابر قد يُخيل له أن الأخير هو سبب ازدهار المصنع واستمراره بالنظر لأنه يذهب إليه في الثامنة صباحًا ولا يغادره إلا في التاسعة مساءً، ولأنه هو من يتابع العمال ورؤساء الورديات ويحافظ على انضباطهم ومستوى إنتاجهم، لكن واقع الحال كان مختلفا، لأن رشيد كان يمتلك موهبة فطرية في التعامل مع الناس وتوثيق الصلة بهم، خاصة من يتسمون بالأهمية والثراء أي الزبائن المفضلين للمصنع.. من يشترون أكثر من مائة ألف طوبة في المرة الواحدة، ومن لا يهتمون كثيرا بالمساومة في السعر.

كان المبدأ الذي اعتمده رشيد لنفسه منذ الصغر هو "الصيت ولا الغنى"، حتى قبل أن يصبح بالغ الثراء عقب بناء المصنع وهو جة بيع التراب، لو كان كل ما في جيبه هو ألف جنيه لوزعها عن آخرها على المحيطين به في مجلسه، طبعا لن يصدق أحد أن هذا المبلغ هو كل ما في جيب الرجل، سيقولون بينهم وبين أنفسهم أن من يوزع هذا المبلغ (بحساب الثمانينيات) في جلسة واحدة لابد أن يكون ثريًا جدًا.. بل بالغ الثراء.

إذا حدث واتجه رشيد مع جابر إلى سرادق عزاء أحد معارفهم مثلا، حيث يتجمع أهم أثرياء المنطقة من التجار وأصحاب المصانع وأحيانا كبار مسئولي المحافظة، سوف يجلس جابر في أي مقعد يقابله كيفما اتفق من دون أن يحدث أدنى جلبة، لكن "رشيد" سوف يمسح المسرح بعينيه بسرعة قبل أن يختار لنفسه الموقع الأكثر جذبًا للاهتمام، بجوار أهم الموجودين أو في الكرسي الذي يتوسط السرادق مباشرة، ويجب أن تتأكد مئة في المئة أنه وببساطة سوف يحظى باهتمام جميع الموجودين من دون أن يبذل جهدًا يذكر.

منذ طفولته عرف رشيد أن الحياة ليست عادلة، هي بشكل أو بآخر تكون أكثر كرمًا مع من يتسمون بحسن الطلعة، يعرف هو ذلك أكثر من غيره.. هو الوسيم المهتم بهيئته كان الأكثر تدليلا بين أخوته.

عاملته أمه رحمة منذ صغره معاملة مختلفة، رفضت أن يعمل معهم في الأرض في طفولته مثل سميح وجابر، أصرت على إلحاقه بمدرسة الإرسالية

الأمريكية بسنباط.. كانت حالتهم المادية قد تحسنت بدرجة كبيرة، وكان رشيد أول من قطف ثمار هذا التحسن بعدم اضطراره للعمل معهم في الحقل وذهابه للمدرسة عوضاً عن ذلك.

كان متفوقاً في دراسته، بل الأكثر تفوقًا بين زملائه، يذهب للمدرسة البعيدة سيرًا على الأقدام في الصباح الباكر، ويعود بعد الظهر ليستذكر دروسه في حين يكدح سميح وجابر مع رحمة وزوجها في الأرض.

لكن رحلته الدراسية انتهت نهاية تليق بنزقه أثناء امتحانات التوجيهية، حين استيقظ من نومه متأخرًا بعض الشيء عن موعده، وبدلاً من أن يحث الخطى من أجل اللحاق بموعد بدء الامتحان، جلس يتناول إفطاره ببطء وبرود، وسميح يتابعه بدهشة، ثم بعد الإفطار ملأ براد الشاي ووضعه فوق وابور الكيروسين المشتعل كي يعد لنفسه شايا، فصرخ سميح في وجهه مغتاظًا:

- يا بنى آدم أنت امتحانك زمانه بدأ، يعنى لازم تشرب شاي يعني؟
- وأنت إيش فهمك في الامتحانات، خليك في الفلاحة أحسن لك.
- احنا طافحين الكوته عشان تتعلم وأنت ولا على بالك.

هنا وصل رشيد إلى قمة عصبيته صارخا:

- طب والمصحف ما هامتحن.

واتجه نحو موقد الكيروسين حاملا البراد بمائه المغلي وقاذفًا إياه على الأرض باتجاه سميح:

- وآدي الشاي أهوه عشان تنبسط.

اندلق الماء المغلي على الأرضية الطينية للبيت القديم، وتصاعدت أبخرته كثيفة، تحرك سميح مبتعدًا في اللحظة الأخيرة، ورغم تحركه لم يستطع أن يتفادى السائل المغلي كلية فطال بعض منه قدمه اليمنى حارقاً جزءًا كبيرًا منها، صرخ من شدة الألم في حين غادر رشيد البيت مسرعًا تاركًا الباب الخشبي المتهالك مصطفقًا خلفه، و لم يعرف بما حدث لقدم أخيه إلا بعدها بيومين.

حين عرفت رحمة بتفاصيل ما جرى أخذت تولول حزنًا على عدم ذهاب ابنها للامتحان، لكنها ظنت أنه سيحضر الامتحانات التي تليه. لم تكن عرفت أن رشيد قرر- كأنما يعاقبهم- أنه لن يواصل الدراسة بعد اليوم.

حتى عندما بدأ مدرسوه في التوافد على بيتهم لإقناعه بعدم ترك الدراسة، لم يفلحوا في رده عن قراره، بدا عنيدًا أكثر من أي وقت مضى.. أخبرهم أنه سينجح في حياته سواءً أكمل دراسته أم لا. حاول سميح أن يعتذر له عما حدث رغم أنه غير مقتنع بأنه قد أخطأ لكن رشيد رفض الاستماع إليه.

بالنسبة لكل من في البيت كان التحاق رشيد بالمدرسة وتفوقه فيها بمثابة مشروع شخصي لكل فرد منهم، كانوا فخورين بأن أحدهم قد يصبح مثل بهوات البندر، يمكنه أن يصير طبيباً أو مهندساً أو ضابطاً. لكن رشيد حطم حلمهم المشترك بعناده.

ولبقية حياته سيظل مقتنعًا أنه إذا كان قد واصل تعليمه لأصبح وزيرًا، غير أن من واصل دراسته وأصبح مهندسًا ناجحًا هو مصطفي ابن معاون الزراعة شقيق لولا وثريا وأنوار، وزميل دراسة رشيد.

دائماً ما يستشهد رشيد بمصطفي للتدليل على ضمانه لمنصب الوزير لو استمر في الدراسة، ذلك لأن مصطفي – من وجهة نظره– لم يكن متفوقاً مثله ومع ذلك أصبح مهندسًا معماريًا ناجحًا، فما بالنا "بألفة الفصل" كما يطلق رشيد على نفسه.

كان أحد هؤلاء الأشخاص المؤمنين بأن العالم مدين لهم بالكثير، وبأن الآخرين يجب أن يكفّروا لهم عن ذنوب لم يرتكبوها في حقهم.

هنا تحديدا تكمن مشكلة سلمى حين تريد أن تكتب عنه. جموحه وعناده هذان اللذان يدفعانه للإقدام على أكثر الأفعال حماقة وتهوراً يجعلانها عاجزة تمامًا عن فهم دوافعه. هي من ذلك النوع من الناس المؤمنين بأن كل فعل إنساني لابد له من مبرر منطقي. لم تتعلم أن المبررات "الحقيقية" من الصعب الإمساك بها، حتى بالنسبة لصاحب الفعل نفسه.

-٧-

لسنوات طويلة ستظل عربة النقل القديمة مركونة خلف بيت العائلة، مغطاة بغطاء من الشكائر التي خاطتها خديجة زوجة سميح مع بعضها البعض في محاولة يائسة لحماية الهيكل الصدئ للعربة.

في الصباح يتساقط الندى ليبلل غطاءها ممتزجاً بالغبار المتراكم عليه، وفي الليل تتحول إلى قطعة من الظلام المحيط. تغفو تحتها الكلاب الضالة التي ما أن يتعالى نباحها حتى يطلق جابر طلقة من طبنجته في الهواء فتتقافز الكلاب هاربة. كان يتشاءم من نباح الكلاب ليلاً، وبشكل عام كان يكره هذه الكائنات، ووقف ضد اقتناء ابنه هشام أيًا منها لأنها تنجس البيت من وجهة نظره.

في صباحات الصيف كانت سلمى وجميلة تنتظران حتى طلوع الشمس ليكون غطاء العربة قد جف تماما من أثر الندى ثم تتسللان لركوبها.

ترفع سلمى جزءًا من الغطاء كاشفةً عن المقدمة شبه المهشمة للعربة، تضع رجلها على الدرجة المعدنية، وتفتح الباب لتدخل إلى كابينة القيادة تتبعها جميلة.

تجلس سلمى مكان السائق وتدير عجلة القيادة فيما تجلس جميلة بجوارها وهي تمثل أنها مساعدتها. تقلد سلمى الصوت المفترض لسائق خشن، وتطلب من صديقتها أشياءً وهميةً تفترض أنها من مهام المساعد.

تعرف أن هذه العربة مركونة منذ سنوات طويلة، اشترتها العائلة قبل أن تُولد هي أو جميلة. تعرّض عمها سميح بها لحادث نجا منه، في حين تحولت هي لقطعة من الخردة.

رفض جابر التخلي عنها لأنها كانت فاتحة الخير على العائلة، فتُركت هكذا خلف البيت. أغلب الظن أنهم قد نسوها بمرور السنوات.

هنا اعتادت سلمى أن تختفي بالساعات من دون أن يكتشف أحد مكانها. كانت تحتفظ في كابينة العربة بأشيائها الثمينة من أغطية زجاجات الكولا والبيبسى، إلى أوراق السيلوفان الملونة، ومن عبوات الشامبو والكريم الفارغة إلى علب الشيكولاتة المعدنية.

حتى عندما انتقلت مع أبيها وإخوتها للسكن في البيت الأبيض الجديد، وانتقلت جميلة مع أمها لبيت العائلة، كانت سلمى تقضى معظم وقتها هناك مع جميلة، معًا كانتا تتسللان إلى داخل العربة، تنفصلان كليةً عن العالم الخارجي في دفء الداخل.

لو كان للأشياء ذاكرة، فذاكرة هذه العربة مثقلة بالكثير من الذكريات. بطريقتها الخاصة ستكون شاهدة على أحوال العائلة منذ لحظة شرائها إلى لحظة تهشمها، حتى بعد ذلك سيكون لديها الكثير من الشذرات التي تصل إليها عبر الهواء.

اشتراها جابر في منتصف الستينيات، لينقل بها محصول الأرض من الخضروات لبيعها في القاهرة والإسماعيلية، في البداية كان يقودها بنفسه هو أو سميح، ويعودان وقد اشتريا كل ما قد يحتاج إليه البيت من المدينة.

وبعد افتتاح المصنع ونجاحه ترك جابر العربة لسميح كي ينقل بها الخضروات ثم فاكهة بستانه لبيعها في المدن المختلفة، ومن وقت لآخر كان يستبدل الخضروات والفاكهة بنقلات من الطوب الأحمر يبيعه في دمياط ورأس البر.

لم يكن يملك في المصنع إلا قيراطاً واحدًا، إذ فضّل على الشراكة الفعلية فيه أن يحصل وحده على بستان الفواكه المجاور لبيت العائلة والذي تفنن في إضافة أنواع جديدة من الفواكه والأشجار والأعشاب إليه.

كان يشتري الطوب من جابر ورشيد كغيره من السائقين الأغراب بسعر المصنع ويبيعه في البلدان البعيدة بسعر أعلى. وكل خميس يذهب لجابر ورشيد للحصول على إيراد القيراط الوحيد الذي يملكه في مصنع الطوب.

يوم الخميس كان هو اليوم الأهم لكل العاملين في مصانع الطوب الأحمر، لأنه اليوم الذي يقبضون فيه أسبوعيتهم، ولأن سميح لا يمتلك إلا قيراطاً واحداً كان يحصل على إيراده أسبوعيًّا كأنّه من العمال. أما جابر ورشيد فكانا يقسمان الأرباح بينهما كل شهر، أو كل ثلاثة أشهر، وفي الغالب كان رشيد يأخذ ما يريده وقتما يشاء ويخصمه جابر من نصيبه في الإيراد.

لم يستمر سميح في قيادة العربة لفترة طويلة، إذ سرعان ما وقع له حادث كاد يودى بحياته، وحوّل العربة إلى قطعة خردة كبيرة. كان عائدًا من الإسماعيلية في الصباح الباكر وبسبب الضباب الكثيف اصطدم بقطيع أغنام في طريقه للرعي، حين انتبه لوجود القطيع وحاول تفاديه، فقد سيطرته على العربة فدارت بسرعة وانقلبت على جانبها وقد تحطمت مقدمتها تمامًا.

خرج هو بكسور في معظم أجزاء جسده، اضطرته لأن يلزم بيته لعدة شهور. وتم تكويم العربة في المنطقة الخلفية للبيت بحيث تكون مجاورة للبستان الذي يملكه.

لم يكن هذا الحادث هو أول حادث تصادم يقع له، إلا أنه الأكبر والأكثر تأثيرًا عليه، إذ جعله يرفض أن يقود أي عربة أخرى لبقية حياته، وعلى الرغم من امتلاكه للمال الكافي لشراء عربة فخمة، إلا أنه أحجم عن ذلك بسبب العقدة النفسية التي سببها الحادث له.

كان إذا أراد الذهاب إلى المدينة لأي سبب يستأجر عربة أجرة يظل سائقها معه طوال اليوم في كل مشاويره.

خاطت خديجة زوجته غطاءً للعربة من الشكائر القديمة كي يحميها من الصدأ، إلا أنها مع مرور السنوات، ومع تسلل الندى إليها عبر الثقوب العديدة التي أحدثها الزمن في الغطاء تحولت إلى ذلك الهيكل الصدئ الذي ما يزال مركونًا في مكانه حتى يومنا هذا.

من وقت لآخر اعتاد سميح أن يرفع الغطاء ليعاينها كأنما يطمئن عليها. يربت بيده على مقدمتها المحطمة ويمسح بعض الغبار ثم يغطيها مرة أخرى.

كان يشعر بالمرارة تجاه أخويه غير الشقيقين، بسبب اعتقاده الذي يصل حد اليقين أنهما يأكلان جزءا لا بأس به من إيراد القيراط الذي يملكه في المصنع، كان جابر يعطيه إيرادًا أسبوعيًا ثابتًا هو ثلاثمائة جنيه، وهو ما أثار شكه، فالمبلغ لا يزيد أو ينقص رغم اختلاف أرباح المصنع من أسبوع لآخر. وحين تكلم معه بهذا الخصوص غضب جابر بشده من اتهام شقيقه الأكبر وعرض عليه أن يشترى هذا القيراط منه كي لا يتسبب في المشاكل بينهما.

لم يعد سميح لإثارة هذا الموضوع مرة أخرى، وصبَّ كل تركيزه في العناية ببستانه الذي كان بمثابة الشيء الأكثر أهمية في حياته.

سميح –الذي عاش يحلم بالسفر للشام للبحث عن أصول عائلته هناك– كان يعتني من بين الأشجار الكثيرة في بستانه هذا بثلاث شجرات جميز معمرة، يصحو مبكرًا لتختين ثمارها بعمل فتحة في جانب الثمرة، أو في قمتها بسكين حاد كي يدخل الهواء داخلها فيسمح بجفاف السائل المائي الذي تفرزه تمهيدًا لنضجها، ثم يغطيها بالشباك لمنع تساقطها أو تلفها بواسطة الطيور، وبعد أن تطيب الثمار يجمعها في سلة ويوزع منها على إخوته ويحتفظ بما تبقى له ولزوجته.

لم يكن يعلم أن أشجاره الثلاث الثمينة تسمى باللاتينية "سيكاموروس سيكامونتو" أي شجرة الحب، وأنها كانت شجرة مقدسة ترمز للمعرفة عند قدماء المصريين، وحتى لو عرف لم يكن ليهتم أصلاً.

ما كان يهمه فعلاً هو ذلك البستان الذي يضم تشكيلة متنوعة من الأشجار والنباتات التي يتابع نموها بشغف ويستخدمها بمهارة في تطبيب المرضى من أهل قريته عبر وصفات لا يعرفها غيره.

كان معظم الفلاحين يلجأون إليه بدلاً من الذهاب إلى الوحدة الصحية الفقيرة في القرية المجاورة، ويخرجون من عنده بدهانات وسوائل أو ببعض أوراق النباتات لاستخدامها طبقًا لوصفته: ثمار الجميز لعلاج النزلات المعوية والإمساك وآلام الطمث، وأوراقه المطبوخة مع ثماره حتى تنهري مضافًا إليها السكر لعلاج السعال والربو ومثلها أوراق الجوافة المغلية،

والرمان لعلاج الدستناريا وقشره المغلي لطرد الديدان من البطن. وبذوره تؤكل على الريق قبل نضجها لمنع الدمامل، إلى آخر وصفات سميح التي لا ينضب معينها.

يقضى معظم يومه في البستان يتابع ثمار المانجو في طريقها للنضج، ويلف ثمرات الرمان بالورق جيدًا كي لا تتلفها الدبابير المنجذبة لطعمها الحلو، يراقب نمو ثمار المشمش والبرقوق والخوخ ويجمع ما طاب منها كي لا يفسد على أغصانه، يعزق الأرض بين الأشجار بفأسه الصغيرة وينقيها من الحشائش. وفي أوقات فراغه يجلس في ظل شجر الجميز ليقرأ القرآن، كان قد تعلم القراءة وهو كبير بغرض أساسي هو قراءة الأوراق التي تركها له أبوه. والغريب أنه كان لا يقرأ إلا القرآن ومانشيتات الجرائد ثم ينادى على سلمى أو خالد كي يقرأ أحدهما له الموضوعات التي تلفت نظره في الأهرام. وكان لا يكتب إلا اسمه وبحروف كبيرة مهتزة كأنها لطفل صغير. وهو في هذا أفضل من أخيه جابر الذي لا يجيد القراءة أو الكتابة.

***

في فترة من حياته، استحوذت أوراق أبيه على كل تفكيره. من وقت لآخر كان يغلق باب غرفته عليه ويخرج الأوراق القديمة المصفرة من الدولاب، ينظر إليها بتركيز ويبحث عن شبه بين الأشكال والحروف بها وبين حروف الأبجدية التي بدأ يتعلمها على أيدي الشيخ في الكتّاب فلا يجده، يضع اللوح المعدني على ركبتيه ويغمس سن ريشته في زجاجة

"الكوبيا"، يحاول تقليد الخطوط الموجودة في كنز أبيه الورقي فلا يفلح، يجلس مغتاظًا لكنه كعادته لا يفقد الأمل ويحاول من جديد.

فكر مرات في أن يعطي الأوراق لرشيد كي يقرأها له، إلا أنه كان يتراجع في اللحظة الأخيرة لخوفه من السر الذي قد تحتويه، ولاعتقاده الراسخ في خطورة ما بها.

اعتبر أن ما في هذه الأوراق يخصه وحده دون غيره، على الأقل حتى يقرأ ما بها.

منذ صغره يعتقد أنه مختلف عن الآخرين، لا يشبههم، كل من حوله يعيشون يومًا بيوم، لا يعرفون ماضي عائلاتهم، وبالتالي لا مستقبل لهم، إذا عرف أحدهم تاريخ عائلته حتى ثاني جد يكون محظوظًا.

وهو صغير اعتاد أن يسأل أباه عن أصول العائلة، لم يكن الأب يحب التكلم في هذا الموضوع كثيرًا، كان وجهه يكفهر إذا فتحه سميح معه، ويهرب سريعًا إلى شأن آخر، لذا آمن الابن بوجود سر كبير يكمن خلف رد فعل أبيه هذا.

ذات يوم بعيد أخبره الأب بينما يستلقيان في ظل أشجار الكافور المعمرة على رأس الحقل أن عائلتهم من الشام، هاجر جدهم الأكبر إلى مصر منذ قرن من الزمان، و لم يزد على ذلك.

لم يكف سميح بعد ذلك عن الإلحاح بالأسئلة، و لم يضيّع الأب فرصة للهرب من الإجابة.

لم يفهم أبدًا لماذا راوغه أبوه بهذه الطريقة، لكنه ربط بين سر العائلة المفترض والطريقة التي أخفي بها الأب الأوراق التي اكتشفها هو بعد عامين من وفاته.

لكنه حين تمكن من إجادة القراءة والكتابة بعد جهد كبير لم يستطع أن يفك الطلاسم الموجودة في الأوراق التي اعتبرها لمدة طويلة أغلى ما يملك. كانت مجرد رموز غامضة لا علاقة لها بما تعلمه على يد الشيخ. أخذها لرشيد فأكد له ما وصل إليه. رفض أن يستردها من رشيد وغادره مصابًا بخيبة الأمل.

***

يجلس سميح أمام شجرة الجميز التي تتصدر بستانه، ممسكا بقطعة زجاج مشطوف يُنعِّم بها الغصن الذي اقتطعه من شجرة الكمثرى وجففه كي يجعل منه يدًا للفأس التي أحضر سلاحها للتو من عند الحداد في البلدة المجاورة.

بهدوء وتركيز شديدين يكحت بالزجاج المشطوف قطعة الخشب حتى تتحول إلى ساق اسطوانية ناعمة يدخلها في فتحة سلاح الفأس ويثبتها بالمسامير حتى يصبح من المستحيل أن تنخلع.

يمكنه أن يجلس هكذا بالساعات ليتم هذه المهمة على أكمل وجه، أو ليغزل لنفسه طاقية صوف. ينهمك في عمله لدرجة أن العابرين به حين يلقون عليه السلام لا يسمعهم وبالتالي لا يرد عليهم.

دائما يجد ما يشغل به وقته، حتى لو كانت كلها أشغالاً غير ذات فائدة، هو مثلا لا يحتاج إلى فأس جديدة، كما أنه توقف عن ارتداء الطواقي منذ زمن، وأصبح يسير في الشارع برأسه مكشوفا ومع هذا لا يتوقف عن غزل طواقٍ جديدة، أو تجهيز فؤوس حادة يزكنها بجوار بعضها البعض في الكوخ الذي يتوسط بستانه من الداخل.

***

كانت سلمى وجميلة تذهبان يوميًا للعب في بستانه.. تجلسان في الكوخ الصغير المجاور لأشجار الرمان في منتصف البستان تقريبا، تجاوره مساحة صغيرة غير مزروعة تبدو كصلعة في رأس غزير الشعر، لم يفهم أحد أبداً لماذا لم يزرع هذه البقعة الخالية وبين الكوخ في أول البستان؟!

تلعبان لعبة البيت تقومان بدورى أختين وحيدتين ترعيان أغناما وهمية، أو جارتين تطهوان قبل عودة زوجيهما من العمل ترافقهما دائما الروائح المختلطة للفواكه المختلفة، وطنين النحل والدبابير المتنقلة من غصن لآخر.

في نهاية لعبهما تقطعان الحشائش لأرانب جدة سلمى لأمها، حتى جاء ذلك اليوم حين كانتا منهمكتين في تقطيع الحشائش بين أشجار الكمثرى والخوخ، فإذا بيد جميلة تصطدم بجسم لين، قربت وجهها لترى كنهه فإذا هو كومة ثعابين صغيرة تتلوى فوق بعضها البعض في غياب أمها. صرختا بكل ما تملكان من قوة وركضتا مبتعدتين، جاء سميح على صوت

صراخهما وحين رأى تلك المخلوقات الصغيرة السوداء تتلوى أخذ يعمل فأسه فيها حتى قتلها جميعا.

بعدها حذرتهما ثريا من العودة للبستان مرة أخرى، وقالت إن الثعابين لا تنسى ثأرها، وإن الثعبانة الأم سوف تعود للانتقام من سميح ومنهما أيضًا إذا لزم الأمر.

كانت تتكلم عن الحيوانات والزواحف وما شابهها باعتبارها كائنات عاقلة مفكرة لا يفرقها عن الإنسان غير هيئتها المختلفة وعدم قدرتها على تكلم لغته.

هي تؤمن أن لكل مخلوق لغة خاصة به. الثعابين تتكلم لكننا لا نعرف لغتها وكذلك العصافير والنمل وغيرها، وإذا جادلها أحدهم في هذه المعلومات سترد فورا مذكرةً بقصة سليمان مع النمل كما وردت في القرآن، وستقول إن معجزة سليمان تمثلت في معرفته للغات الحيوانات كلها وفي تسخيره للجن، ولو افترضنا أن الحيوانات ليس لها لغة، فهل معنى هذا أن ذلك النبي العظيم كان بلا موهبة حقيقية؟

لم تكن ثريا تعلم إلا أقل القليل عما جاء في القرآن كونها لم تدخل المدرسة، ولا تجيد القراءة والكتابة، هي تسمعه من وقت لآخر في الراديو أو في صوانات العزاء، لكنها ليست ملمة بالدين ككل إلمامًا حقيقيًا، كل علاقتها به هي معرفتها لبعض قصص الأنبياء، كما أنها حين تلطم خديّها وتشق ملابسها في حالة الحزن أو الغضب الشديدين

تذهب إلى الشيخ عيد لـ "يرد لها دينها"، تكرر الاستغفار خلفه عدة مرات قبل أن تتلو الشهادتين، و تقسم له أنها لن تلطم خدودها أو تشق ملابسها مرة أخرى.

لمحت ثريا ظلاً من عدم التصديق في عيون البنتين، ويبدو أنها اعتبرت هذا الظل مقوضًا لسلطتها عليهما فأقسمت بالنعمة الشريفة أن ما تقوله هو الحقيقة وواصلت: "دا حتى كان فيه واحد حطّاب بيقطع الشجر، قام قابله تعبان كبير أصفر، الحطّاب قطع رأس التعبان بالفأس، وكمل تقطيع الشجر، ولما خلّص راح لبس هدومه وجزمته اللي كان حاططهم على جنب، وفجأة صرخ ووقع ع الأرض ميت بعد دقايق لأن راس التعبان كان استخبى في الجزمة ولما الحطّاب حط رجله فيها لدغه".

تنظر إليهما لترى رد الفعل على كلماتها قبل أن تقول: "فما بالكوا بقى دي أم وسميح موت عيالها؟".

لكن الحية لم تقتل "سميح"، وواصل هو تواجده المستمر في بستانه كأن شيئًا لم يحدث، وكانت ثريا تعود للموضوع من وقت لآخر قائلة، إن الحيات والثعابين لا تنسى ثأرها مهما طال الزمان.

***

لم ينجب سميح ورفض أن يطلق زوجته خديجة، أو أن يتزوج عليها بغرض الإنجاب، ووجه مشاعره الأبوية نحو أبناء إخوته، ونحو ماريز وجرجس طفليّ رزق حريّق المصنع.

كانت ماريز على وجه الخصوص تقضي معظم يومها مع خديجة زوجة سميح، أو معه هو في البستان، تلعب حوله وتستمع منه للسيرة الهلالية التي يحفظها عن ظهر قلب، وللحواديت الشعبية العديدة التي تفتنها.

كان يعتبرها الابنة التي لم ينجبها، يمكنه أن يظل لساعات يتحدث معها ويحكي لها من دون أن يمل من ذلك. كان يحب لهجتها الصعيدية المهجنة بكلمات من اللهجة الريفية. وأسئلتها التي لا تنتهي عن كل شيء يصادفها.

أخذت عنه حبه للنباتات، إذ كان يشرح لها الفرق بين النباتات والأشجار المختلفة، وطرق رعايتها والعناية بها. في البداية لم ترحب أمها كثيرًا بوجودها المستمر هي وأخيها مع سميح وزوجته، إلا أن زوجها رزق لم يقتنع بمخاوفها. ورحب باهتمام الزوجين بطفليه.

كانت علاقته بسميح جيدة جدًا، إذ كان الأخير يعامله كصديق لا كعامل في مصنع أخويه. غير أن عايدة ورغم موافقتها الظاهرية اعتادت أن تستقصى من ابنتها عن كل التفاصيل التي مرت بها لدى سميح وخديجة: الكلام الذي أخبراها به، الطعام الذي تناولته، وكل شيء آخر.

كانت ماريز تنظر للبعيد، من دون أن ترد في البداية، لكنها وتحت إلحاح أمها تضطر لقص كل ما مر بيومها. وهي تدارى دموعًا خفيفة في عينيها الواسعتين.

يُخيل لمن يرى "ماريز" أن وجهها عبارة عن عينين فقط، كأن الله أراد في البداية أن يجعل عينيها تحتلان كامل الوجه، لكنه عدّل رأيه في اللحظة الأخيرة وقرر أن يمنحها فمًا وأنفًا وجبهة وذقنًا.

عيناها واسعتان جدا، ربما أكبر من فمها الدقيق بشفتيه الرفيعتين، وأنفها الصغير. جبهتها الضيقة بارزة قليلاً للأمام، وذقنها مدبب بعض الشيء، أما الحاجبان فيحلو لأمها أن تشبههما بهلالين صغيرين.

نادرًا ما تتكلم ماريز في حضور الآخرين خاصة من عائلة سلمى، حينما تكون ثريا أو رحمة أو حتى نظلة موجودات تنكمش البنت الصغيرة على نفسها وتلتصق بسلمى ولا تتصرف بحرية إلا حينما تكونان معا بمفردهما، لا تتكلم "ماريز" مثل صديقتها، حين تقسم لا تقول والله العظيم، بل والمسيح الحي، وحين تستفسر منها سلمى عن معنى ذلك تصمت ولا ترد. أوصتها أمها ألا تتحدث مع أي شخص عن دينها باستثناء من تقابلهم في كنيسة السيدة "رفقة"، وباستثناء "أبونا" بالطبع.

صباح كل أحد تستيقظ عايدة مبكرًا، ترتدي أفضل ملابسها، وتُلبس طفليها ملابس العيد السابق للذهاب إلى كنيسة السيدة "رفقة" في سنباط، في طريقها تمر على رزق الذي يقضي أغلب لياليه في غرفته الصغيرة فوق فرن المصنع، تأخذ منه مصروفها هي والأولاد، وتقطع مسافة الخمسة كيلو مترات بين القرية الصغيرة التي لا يوجد بها كنائس وبين سنباط سيرًا على الأقدام.

غالبًا ما تجلس في منتصف المسافة لبعض الوقت كي يستريح طفلاها ويشربا من طلمبة المياه الموجودة على جانب الطريق أسفل شجرة توت ضخمة. في هذه الأثناء تجلس هي فوق حافة الحوض الأسمنتي للطلمبة، تنظر بصمت لطفليها، وهما يشربان أو يرشان بعضهما البعض بالمياه التي تبدو متألقة لامعة حين تنعكس أشعة الشمس عليها.

في الكنيسة تركع أمام المذبح وتوقد شمعة للعذراء وأخرى للسيدة رفقة وخمس شمعات لأبنائها الشهداء قبل أن تعود بظهرها هي وطفلاها، يسألها القس عن أحوالها هي وأسرتها. يعطى ماريز وجرجس قطع الحلوى، ويباركهما. يقبلان خاتمه مثل أمهما التي تنصرف بقوة نفسية تعينها على احتمال أيام الأسبوع حتى الأحد التالي، ولا تخبر القس بالمجادلات الطويلة بين زوجها وبين الشيخ عيد.

ذلك أن الشيخ الكفيف ذا الرأس المائل للأمام كان قد وضع عملية إخراج رزق وأسرته "من الضلالة إلى الهدى" على رأس أولوياته، وشرع في زيارة المصنع بشكل منتظم في العصاري بعد أن يكون عمال "الطينة" قد انتهوا من أعمالهم، ولم يعد بالمكان سوى العمال الذين ينقلون الطوب الأحمر من الفرن لتحميله في الجرارات وعربات النقل، وبالطبع رزق الحريّق.

ينادي بصوته الأجش "يا حاج رزق" ولما لا يرد عليه الأخير يتجاهل الجلبة التي يصنعها العمال على الأبواب العديدة للفرن، ويتحسس طريقه

بعصاه حتى يصل إلى الدَرَج الضيق، يصعد ببطء شديد خوفًا من السقوط، وحين يصل إلى سطح الفرن يمشي فوق حافته العريضة نوعًا محاذرًا السقوط في باطن الفرن أو من الحافة إلى الأرض المجاورة.

"يا رزق يا ابني الحقني" يصرخ وقد بدأ يشعر بالحرارة تلفحه، فيسارع رزق كي يأخذ بيده إلى حجرته في الجانب الآخر.

كان كغالبية رجال الدين يؤمن بأن دينه هو الصراط المستقيم الذي يجب أن يتبعه كل البشر، ويرى أن مهمته الأولى هي هداية الغارقين في الكفر والضلال، لم ينظر لرزق على أنه من هؤلاء لأنه في النهاية يؤمن بعيسى ابن مريم "سيدة نساء العالمين" وليس أحد عبدة النار والعياذ بالله كما يكرر له، لكنه رأى أنه سوف يعتنق الإسلام بكل تأكيد إذا تعرف عليه عن قرب، وبهذا يكسب الشيخ ثوابًا كبيرًا، بعد أن قارب على اليأس من هداية أهل قريته وجعلهم يلتزمون بتعاليم دينهم. ربما يبدو هذا الأمر عبثيًا لكنه "الحقيقة" مجردة. فـ"تصميم" الشيخ على إقناع رزق بالإسلام مرده أنه أراد التعويض به عن فشله في مهمته كشيخ وخطيب للمسجد الصغير.

غير أن تصميمه هذا كان مشوبًا ببعض الزيف، إذ بدت حواراته مع رزق في وجه من وجوهها كمحاولة لملء فراغ حياته، وإخراجه ولو مؤقتًا من وحدته وعزلته.

يبدأ الرجل كلامه مع رزق بجملة لا يغيرها: "ما هو يا ابني يا تقنعني يا أقنعك، أكيد واحد فينا صح والتاني غلط"

يهمهم رزق من دون أن ينطق بكلمات واضحة محددة، فيواصل الشيخ:

– المسيح لم يصلب.

يفرح بالجملة وقد خرجت منه بالعربية الفصحى، فيواصل وقد علا صوته:

– وما صلبوه وما شنقوه ولكن شُبه لهم.

لا يقدر على تكملة أفكاره بالفصحى فيرتد إلى العامية بصوت منخفض:

– انتوا بعد كده اللي حرفتوا الإنجيل، لأن سيدنا عيسى كان قال "سيأتي نبي من بعدي اسمه أحمد" بس انتوا غيرتوا ده.

يصمت رزق– الذي كان مختلفًا تماما عن بطل "المهدي"[٦] باستسلامه الرومانتيكي لمحاولة أسلمته– لبرهة قبل أن يرد بحدة ونفاد صبر: يا عم أنا لا غيّرت حاجة ولا شفت حاجة، وبعدين بأه في اليوم اللي مش فايت ده؟ أنت مش هتحل عنى بأه؟ مش عايز أشوف وشك هنا تاني.

لا ييأس الشيخ المترنح بين الفصحى والعامية، ويواصل كلامه، وحين يجد أن رزق قد آثر الصمت ووضعه أمام عماه وجهًا لوجه يقول له:

– رزق.. يا رزق، إنت لسه موجود؟

(٦) رواية قصيرة لعبد الحكيم قاسم.

– أيوه يا عم الشيخ.
– طب والنبي لتقوم توصلني لتحت.

يسحبه رزق من يده حتى ينزل به إلى الأسفل ثم يتركه. يعود لعمله وقد قرر أن يشكو الشيخ عيد لجابر، غير أنه سرعان ما يغير رأيه وينهمك في عمله من جديد.

كان وجود رزق وأسرته في هذه العزبة الصغيرة يثير فضول الآخرين ويربكهم؛ حيث لم يكن قد سكنها أقباط قبله، وبالتالي فأبسط أمر يخصه يتحول بسهولة لشيء غريب لا يفهمونه. وأبسط موقف يمكنه أن يثير اللبس وسوء الفهم.

كان رزق يعاني من الضعف الجنسي، واعتاد أن يلجأ إلى سميح كي يمده ببعض الوصفات التي تساعده في الليالي القليلة التي يقضيها مع أسرته كل أسبوع بعيدًا عن الفرن. مرة يصف له مخلوط العسل والبصل المغلي، وأخرى يطلب منه أن يأكل البصل المشوي بالفستق وطلع النخيل والعسل، أو يفطر بمخلوط الكمون والثوم والينسون وبذر الفجل والعسل لتوليد المني.

لكن أفضل الوصفات وأكثرها فعالية مع رزق كانت خليط جوزة الطيب مع العسل ونصف بيضة مسلوقة الذي جربه مرة قبل لقائه الجنسي بزوجته عايدة بساعة كما نصحه سميح، وشعر بالفارق الكبير، أراد بعدها الحصول على نتيجة أفضل فضاعف من تلقاء نفسه من كمية جوزة الطيب

في الوصفة ليُفاجأ بما يشبه الحريق في معدته مع غثيان وقيء مستمرين تلاهما دوار وهلوسة.

صرخت عايدة ظنًا منها أنه يعاني من التسمم وأيقظت ابنها جرجس لينادي على جابر الذي نقله بسيارته إلى المستشفى العام في المركز، كي يجري له الطبيب غسيلاً للمعدة.

لم تصدق المرأة أن هذه الأعراض بسبب الإفراط في تناول جوزة الطيب كما ذكر الطبيب وتخيلت أنه يداري على محاولة لتسميم زوجها.

***

من جانبها لم تكن رحمة أقل توجسًا من عايدة. فمنذ البداية لم ترتح لفكرة سكن رزق وأسرته في "النوّالة" القديمة. حاولت من دون جدوى أن تقنع جابر بألا يتركها لهم.

في داخلها كانت تعتقد أن وجودهم في نوالتها يمثل اعتداءً صارخًا يصل حد التدنيس. هي مستعدة لأن تمول بناء حجرتين صغيرتين لهم، لكن أن يسكنوا في ملكية خاصة بها أمر لا يطاق بالنسبة لها، ولا ينبغي السكوت عليه.

ذات يوم طلبت من ثريا أن تأخذها لزيارة عايدة، أخذت معها كمية كافية من اللبن والجبن ورطلين زبدة، وتوجهت مع زوجة ابنها للنّوالة.

كانت عايدة جالسة إلى طست الغسيل لغسل الملابس المتسخة حين فوجئت بزيارة المرأتين لها، مسحت يديها في ردائها الذي

يصل لما تحت الركبة بقليل، وهرولت ناحية الحاجّة رحمة للترحيب بها، أعطتها ثريا اللبن والجبن والزبد فحملته إلى الركن الذي تطبخ فيه، من دون أن تخبرهما أنها صائمة هي وزوجها وبالتالي لن يأكلا مثل هذه الأشياء. فرشت الحصيرة الخوص على الأرض كي تجلس عليها الضيفتان وأسرعت لتعد لهما الشاي.

جالت رحمة بعينيها في المكان، تعلق بصرها بصورة العذراء تحمل وليدها، وبالصليب الخشبي المعلق في مواجهتها بجوار صورة المسيح، وصورة ماري جرجس راكبًا حصانه وموجهًا سيفه نحو التنين، غلى الدم في عروقها إلا أنها لم تنبس ببنت شفة.

حين وضعت عايدة كوبي الشاي أمامهما ادعت رحمة أنها لا تشربه على الإطلاق، ومسايرة لحماتها قالت ثريا إنها شربت ما يكفيها منه اليوم. تذكرت عايدة أن لا أحد من القرية شرب أو أكل أي شيء عندها منذ جاءت إليها مع زوجها وطفليها لذا لم تلح على المرأتين كي تشربا الشاي، و لم تقترح أي مشروب بديل. تمنت أن تقذف اللبن والزبد في وجه العجوز المكتنزة الجالسة أمامها لكنها لم تتجاوز حدود التمني، كعادتها ابتلعت الإهانة وهي تبتسم بود مصطنع. راقبت رحمة وهي تستند إلى زوجة ابنها مغادرة المكان، وتمتمت بصوت منخفض "مسلمين أوساخ"! رغم انخفاض الصوت ميزت "ماريز" – المستندة إلى الحائط كأنها طوبة فيه– جملة أمها التي طالما سمعتها منها سواءً حين كانوا يعيشون في قريتهم

في أسيوط، أو في القرى العديدة التي تنقلوا بينها تابعين لأبيها من مصنع طوب لآخر.

اعتادت رحمة أن تسأل سلمى التي تتردد كثيرا على النوّالة عن الصور المعلقة على الحائط، هل ما تزال موجودة هي والصليب الخشبي أم لا؟ وحين تخبرها حفيدتها أنها موجودة، تخبط وركها الممتلئ بكفها وتزم شفتيها بغضب متمتمة "عشنا وشفنا، الله يخرب بيت المصانع ع اللي كان شار علينا بيها". تصمت لبرهة ثم تواصل مستنكرة "ناقص كمان يبنوا لهم كنيسة". في هذه الأوقات تتحاشى ثريا تمامًا الاقتراب من حماتها ناهيك عن محاولة تهدئتها.

***

وطبعًا لم يبن رزق كنيسة أو حتى مجرد بيت خاص به في القرية، فبعد مرور سنوات على موت رحمة، وكانت ابنته ماريز قد أصبحت في الخامسة عشرة من عمرها، فضل الانتقال للعمل في مصنع قريب من قريته في أسيوط.

– البت خلاص بقت على وش جواز، ولازم ارجع بيها البلد عشان الرب يكرمها بعريس من قرايبنا.

قال رزق، و لم يعترض جابر أمام هذا المنطق، على الرغم من صعوبة أن يجد بديلاً بمهارة الرجل نفسها. كان يعرف أنه قد استمر معه لمدةٍ أطول

بكثير من أي حريِّق آخر. فالمعتاد في مصانع الطوب ألا يقضي الحريِّق في مصنع واحد أكثر من خمس سنوات.

أحضر رزق عربة نصف نقل جمع فيها أثاثه القليل، وصرر الملابس التي ربطتها زوجته. رفض في البداية أن يأخذ مبلغ الألف جنيه الذي أعطاه سميح لابنته ماريز كمساهمة بسيطة في جهاز عرسها المحتمل، إلا أنه اضطر للموافقة أمام إلحاح الأخير.

ركب بجوار السائق، وانطلقت العربة مخلفةً عاصفة من التراب. كانت زوجته قد سبقته هي وماريز وجرجس قبل أسبوع.

-٨-

في صباح ذلك اليوم الذي أضرمت فيه سلمى النيران في الصندوق الخشبي بالأوراق التي يحتويها، كانت قد قضت معظم وقتها منذ أن استيقظت في نكش محتوياته وقراءة ما به من أوراق.

اندهشت حين وجدت صورًا عديدة لخالتها "لولاّ" بينها، واحدة وهي ترتدي قميصًا بنيًا وبنطلونا بيج شارلستون وفق موضة السبعينيات وشعرها الطويل ينسدل خلفها، وأخرى شخصية تبتسم فيها بوداعة وشعرها مرفوع لأعلى على هيئة ذيل حصان، وثالثة تتوسط فيها رشيد وثريا ليلة زفافهما.

لم تر سلمى لخالتها من قبل غير تلك الصورة المعلقة في حجرة الصالون ببيت جدها لأمها، لكنها تعرفت عليها فورًا، وإن كانت لم تفهم سبب

احتفاظ أبيها بهذه الصور ضمن أوراقه الخاصة، أخرجتها من الصندوق ووضعتها في درج تسريحتها، وانغمست في تصفح باقي الأوراق بما فيها الأوراق التي طالما شغلت عمها سميح، ودفعته لتعلم القراءة كي يقرأها بنفسه.

ابتسمت بمرارة وهي تفكر في هذه المفارقة، ولم تدرِ أتشفق على عمها، أم تحسده على قدرته على السعي وراء أحلامه حتىّ وإن كانت مجرد وهم.

فرزت سلمى الأوراق، احتفظت بما رأته مهما وتركت ما هو دون ذلك.

عادت من جديد للتفكير في خالتها، قالت لنفسها " كم كانت جميلة ورقيقة ". لا تتذكر أن أمها قد حكت لها أبدًا عنها، كانت تغير الموضوع كلما حاولت هي أن تسأل عنها. تعرف فقط مجرد شذرات مثل أنها الأخت الصغرى لأمها، ماتت في العشرين من عمرها بعد أن شبكت النيران في قميصها المصنوع من النايلون.

أخبرتها أمها بهذه الشذرات حين ألحت في السؤال وهي في العاشرة من عمرها، وألحت عليها ألا تنطق باسم خالتها أبدًا أمام جدتها أو جدها كي لا تقلب عليهما المواجع. وطبعًا لم تخبرها أنها ماتت منتحرة بتجرع الزرنيخ، لأن مثل هذه الأشياء لا يصح أن تُحكى.

***

لم يعد هناك الآن من يتذكر لولاّ التي من لحم ودم، أصبحت في الأغنية مجرد اسم يترنح بين خيوط شعر أسود طويل كما تترنح حشرة ضعيفة بين خيوط عنكبوت مفترس.

هناك حيث الظلام المتربص بالوقت والبشر؛ حيث تحاصر نباتات الحلفا والغاب البلدي الأراضي المحيطة بالنهر، ويتسيد ورد النيل صفحة الماء، اعتاد الأطفال أن يغنوا للولاّ ابنة معاون الزراعة التي لم يروها:

" شعرك طويل يا لولاّ، وقع في البير يا لولاّ، نزلت أجيبه يا لولاّ، قابلني البيه يا لولاّ، إداني جنيه يا لولاّ، أجيب به إيه يا لولاّ، أجيب به وزة يا لولاّ، والوزة تكاكي يا لولاّ، وتقول يا وراكي يا لولاّ، وراك الشوم يا لولاّ، سافر الفيوم يا لولاّ ".

لم يكن شعرها طويلاً للدرجة التي تصورها الأغنية، ورغم ذلك التصقت الأغنية بلولاّ والتصقت لولاّ بها.

وإذا سأل أحد الأطفال أمه عن لولاّ بعد أن يكون قد أنهك قواه من اللعب بالخارج وأنهك أحباله الصوتية من الغناء، ستتحدث أمه غالبًا عن شعر لولاّ الطويل حتى ركبتيها وستبالغ كثيرًا في وصف جمال عينيها السوداوين وبشرتها الحنطية وقوامها الملفوف.

وإذا استفسر عن سر جنون أم لولاّ حين يتغنى الأطفال باسم ابنتها، ستنظر أمه للبعيد دون أن ترد وقد تتشاغل فجأة بأحد شئون المنزل، وأبدًا لن تخبره عن الزرنيخ الذي تجرعته لولاّ صاحبة الوجه الذي يشبه وجوه الهنديات.

وبالطبع فإن بطنها الذي انتفخ كثيرًا في الأشهر الأخيرة من حياتها سيكون الشيء الذي لن تسمح الأم حتى لنفسها بمجرد التفكير فيه، لأن الأمهات الطيبات هناك يؤمنّ بأن التفكير في هذه الأشياء المحرمة أو مجرد النطق بها أبشع بمرات من التورط الفعلي فيها، هن يعتقدن أن ما لا يُصرَح به لم يحدث.

"لم يحدث" مثلاً أن البيت المعروف حتى الآن ببيت المعاوَن والواقع على أطراف القرية شهد ذات يوم حياة صاخبة وأحداثًا ستظل الجدران والنباتات شاهدة عليها ولن تنمحي من ذاكرتها، لأن ذاكرة النباتات والأشياء لا تعترف بالمراوغة ولا بالفرق بين المعلن والخفي.

"لم يحدث" أن كان هناك ثلاث أخوات هن ثريا وأنوار ولولاّ يملأن حياة والدتهن ووالدهن معاون الزراعة بالحب والمرح طالما تنكرن لغريزتهن ومارسن الوأد الرمزي لأنوثتهن بأناة وانتظام.

في الحقيقة حدث أن ابنتين هما ثريا وأنوار نجحتا بامتياز في أن تكونا حبيبتيّ أمهما وقرة عين أبيهما، تلك المرأتان حدث أن وُجِدتا لأنهما قامتا بالمتوقع منهما فدخلتا التاريخ الرسمي للعائلة، أما الأخت الصغرى الشاردة باستمرار، والمحلقة في ملكوت خاص بها.. تلك التي تمسح الغبار عن وريقات التمر حنة وتجمع الفل لتلضمه في عقود، والتي تدوخها رائحة الفانيليا حتى لتتمنى أن يكون العالم الذي نعيش فيه كله بنكهتها ومعجونًا بها، هذه البنت التي تضخم ثدياها وتكور بطنها من دون زواج، ورفضت أن تنطق باسم والد جنينها "تستحق" أن تكون

كأنها لم تكن. أن يحاصرها الصمت وينسج خيوطه حولها كما ينسج شعرها الطويل غمامته حول شبحها الذي تحلف النسوة أنهن يرينه يسير ببطن منتفخ في الخلاء المجاور لبيت أبيها.

أضحت لولاّ بالنسبة للجميع مجرد جسد تم تدنيسه، وبالتالي وجب التخلص منه، ولأنها فتاة لطيفة ورقيقة وفرت على والدها وأخيها مصطفي أن تتلوث أيديهما بدمها بشكل مباشر، وكونها عاشت في السابق حياة كاملة من الطاعة فقد لمحت بسرعة زجاجة الزرنيخ التي ظهرت فجأة في الحمام والتقطتها في ظهيرة حارقة لتتجرع ما بها.

كانت ثريا هي الأخرى ترتبك إذا لفظ أحدهم اسم أختها المنتحرة حتى ولو بصورة عرضية، ذات مرة أجلست ابنتها هيام أمامها لتمشط لها شعرها الأسود الطويل، وعلقت "نظلة" أن شعر هيام يشبه شعر خالتها لولاّ فانتفضت ثريا كمن لدغه عقرب سام، ورمقت شقيقة زوجها بنظرة غاضبة معاتبة.

أحيانا ترد على من ينطق باسم أختها بقولها "بلاش الكلام ده قدّام البنات"، فتنظر هيام إلى سلمى دون أن تدركا ما العيب في ذكر اسم خالتهما التي لا تتذكرها أي منهما.

مصطفي شقيق "ثريا" كان الوحيد الذي يُشير إلى لولاّ من دون حساسية ملحوظة، إلا أنه لم يكن يذكر اسمها. كان يشير إليها بالمرحومة فيفهم الجميع أنه يتحدث عنها. يقول "مسكينة اتغرر بيها ربنا يسامحها

ويرحمها"، لكنه لا يذكر طبعًا أنه تخلى عنها ولم يقف بجانبها كما يجب، كان كل ما يهمه وقتها أن يدارى الفضيحة عن زوجته القاهرية "نهاد" وعائلتها الثرية.

لم يستطع حتى أن يحضر جنازتها، لأنهم لم يتمكنوا من الوصول إليه إلا في اليوم التالي. وقتها لم يكن هناك تليفونات في القرية، فذهب رشيد لمكتب البريد في المركز كي يرسل له تلغرافًا. جاء وحده، وعلى رغم حزنه الشديد على أخته الصغرى، إلا أنه بدا كأنما يرى أن ما فعلته كان الحل الوحيد الممكن، خاصة مع رفضها أن تبوح باسم والد جنينها.

كان البيت كئيبًا صامتًا، أمه راقدة في فراشها وقد ربطت رأسها بعصابة سوداء، وثريا وأنوار جالستان في الصالة مع أبيهما دون كلام، لم يكن هناك معزون.

عرف مصطفي أن والده صمم على إقامة صلاة الجنازة على روح ابنته على الرغم من اعتراض الشيخ عيد لكونها منتحرة، بكى الأب فرضخ الشيخ تعاطفًا معه من غير أن يقتنع.

هيام ذات الأربع سنوات وقتها كانت تلعب مع خالد الأكبر منها بسنة، يضحكان في الشرفة فتنهرهما ثريا الحامل في شهرها الأخير في سلمى، وتعود ببطء وقد وضعت يدها خلف ظهرها، لتجلس في الصالة بجوار أختها وأبيها.

عندما دخل مصطفي على أمه في حجرتها لم تسأله للمرة الأولى منذ أن تزوج : "فين مراتك يا أخويا؟" كانت مرتاحة لعدم مجيئها في هذا الظرف.

اعتاد مصطفي أن يزور عائلته وحده. كانت زوجته نهاد ترفض أن تأتى معه، وبدلاً من ذلك تنتظره في بيت والدها في القاهرة حتى يعود فترجع معه لشقتهما. وعندما تلمحه والدته من جلستها في الشرفة قادمًا من بعيد على الطريق الترابي الموصل للقرية، تمصمص شفتيها قائلة:

– يا حسرة قلبي على الرجالة. عشنا وشفنا الحريم يمشّوا كلامهم على رجالتهم.

وبطبيعة الحال لم يستطع أي شخص أن يقول لها أنها هي الأخرى الحاكم الآمر في بيتها، وأن زوجها معاون الزراعة القديم لا يجرؤ على مخالفة أي كلمة لها.

لدرجة أن رشيد حين رغب في الزواج من ابنتها ثريا، رفضت أمه بشدة في البداية، بسبب أن "بيتهم ممشياه مرة، وشورة الحريم تجيب الفقر"!، ولم ترضخ إلا حين تأكدت من تصميم ابنها المدلل على هذه الزيجة مهما كلفه الأمر.

لم تبدأ نهاد زوجة مصطفي في التردد معه على القرية بصفة مستمرة، إلا مع موجة الثراء الشديد، التي تلت افتتاح مصانع الطوب الأحمر في المنطقة، وقتها تناست مؤقتًا، كلامها السابق عن جلافة الفلاحين، وبشرتها الحساسة التي لا تحتمل قرص ناموسهم الشرس.

كانت امرأة أقرب للنحافة، متوسطة الطول شعرها قصير على طريقة نجوى إبراهيم، وملابسها مهندمة دومًا، بألوان زاهية. لم يرها أحد من أقارب زوجها قط من دون أحمر الشفاه والكحل في العينين حتى لو كانت مستيقظة منذ دقائق فقط.

لم تكن تدع بناتها الثلاث يبتعدن عنها ولو لثوان، وفي كثير من الأحيان ترد هي بسرعة بدلاً من زوجها، إذا وجه له أحدهم أي سؤال، كأنه طفل صغير تخشى أن يرد بجواب غير ملائم.

كانت هي من طلب منه أن يستدين من رشيد النقود التي اشترى بها عربته الأولى البيجو ٥٠٤ بلونها الأزرق المميز. بل وتعلمت قيادتها قبله، وحين جاءت بها معه للقرية أول مرة، هي في مقعد القائد وهو في المقعد المجاور، صرخت أمه فيه اعتراضًا، ولم تهدأ إلا حين وعدها بألا يكرر هذا مرة أخرى.

عندما بدأت أحوال زوجها المادية في التحسن نتيجة عمله مع والد مارجو، امتنعت نهاد مرة أخرى عن زيارة القرية معه. عادت إليها ذاكرتها فجأة، فتذكرت من جديد جلافة الفلاحين وناموسهم الشرس.

***

لما كانت سلمى وهي صغيرة تلح على أمها كي تحكى لها عن خالتها لولاّ، كانت الأم تتهرب منها وتبدأ في حكى حدوتة أخرى. من بين كل حواديت ثريا ظلت حدوتة "كمونة" (٧) هي الأثيرة لدى سلمى وجميلة:

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان، ولا يحلى كلام إلا بذكر نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، كان فيه مرة وراجل كبار في السن، وما خلفوش، قاموا دعوا ربنا "يا رب نخلف بنت ونسميها كمونة"، فخلفوا بنت وسموها كمونة.

كمونة لما كبرت شوية كانت تروح كل يوم تحرس غيط الكمون اللي زارعه أبوها. وتبعد عنه الطير والعصافير، ولما تشوف حد يقرب من الغيط تصرخ فيه "اطلع يا اللي في كمون أبويا، اطلع يا اللي في كمون أبويا".

وروحي يا أيام، تعالى يا أيام، وفي يوم جه واحد طويل عريض لابس جلابية وفوقها بالطو رمادي طويل وفي إيده خرزانة، الواحد ده مشى في قلب الغيط وهو بيدوس ع الكمون، فقامت كمونة نادت عليه وهي بتغني زي عادتها "اطلع يا اللي في كمون أبويا"، لكن الرجل ما طلعشي م الغيط، وفضل ماشي ماشي ماشي لحد ما وصل للبنت الصغيرة، ومسكها وحطها في جيب البالطو وراح ركب مركبه ومشى بيها.

---

(٧) حدوتة شعبية شهيرة من وسط الدلتا كتبتها المؤلفة بتصرف من الذاكرة.

كمونة وهي في جيبه كانت بتبكي وتغني:" وبتحسبيني يا مّه حارسه لك الكمون، وبتحسبيني يا مّه حارسه لك الكمون، دا أنا في جيب واحد مراكبي ومسافر اسطنبول".(٨)

يُقال والعهدة على من روى لا من نقل أن روح كمونة ما تزال تغنى أغنيتها الحزينة تلك، وترددها خلفها كل الأرواح الحزينة المبعدة عن ذويها وأماكنها.

كمونة الصغيرة محبوسة في جيب بالطو المراكبي الخشن. لا تقدم الحدوتة تفسيرات ولا تأبه بالعقل والمنطق ورغم هذا نصدقها ونلهث خلف كمونة في أوديستها الخاصة التي لن تصل فيها إلى إيثاكا تذكر.

---

(٨) كانت ثريا تصر على أن تنهي الحدوتة السابقة وكمونة ما تزال في جيب المراكبي في طريقه إلى اسطنبول تاركة الأطفال قلقين على مصيرها في مدينة غريبة بعيدًا عن أمها وأبيها. لم تقل لهم أبدًا أن البنت الصغيرة الماكرة بعد أن فرغت من غنوتها الحزينة، وقبل أن يصل الرجل أصلاً إلى مركبه باغتته بأنها تريد أن تقضي حاجتها، وحين تردد في إخراجها هددته بأنها ستفعلها في جيبه، فأخرجها لتقضي حاجتها وراء الأشجار المجاورة، فظلت البنت تركض وتركض حتى وصلت إلى بيتهم، وطرقت الباب على أمها الباكية التي سألت:

– مين؟

– افتحي يا أمه أنا كمونة.

ردت أمها وهي تبكي:

– كمونة راحت وراحت أيامها.

ثم فتحت المرأة الباب لتجد ابنتها أمامها فأدخلتها، وعاشوا في تبات ونبات.

بصوتها العذب تترنم ثريا بمرثية كمونة لنفسها، ينتظر الأطفال منها أن تكمل لهم ما حدث للطفلة الصغيرة في بلاد أخرى بعيدة، لكنها تصمت فجأة، ثم تخبرهم أن هذه هي نهاية حدوتتها، وأنها لا تعرف أبعد من هذه الأغنية الحزينة. كأن الحزن هو غاية الحدوتة ومنتهاها.

يصمتون محاولين أن يتخيلوا كمونة في رحلة عودتها ظافرة إلى أمها وأبيها العجوزين، إلا أنهم يفشلون دومًا في ضبط أحداثهم المتخيلة مع بعضها البعض.

عدم الاكتمال هو سر كمونة، هو الذي حفظها لهم دونًا عن بقية الحواديت ذات النهايات السعيدة، والأبطال المنتصرين.

الطفلة الباكية المخطوفة تحولت إلى روح قلقة هائمة، تسمعها الجدات في أصوات الطيور الحزينة.

كانت جميلة هي أكثرهم انبهارًا بتلك الحدوتة التي تتلاءم مع مزاجها الكئيب. كانت هي وسلمى متلازمتين دائما تسيران معًا ما يقرب من الخمسة كيلومترات يوميًا في طريقهما لمدرستهما في القرية المجاورة. في البداية أي بعد وفاة صابر بوقت قصير كانت تسير واجمة، بالكاد ترد على أسئلة سلمى لها، إذا ضحكت تبتلع ضحكتها فورًا ويزداد وجومها عن ذي قبل كأنما تعاقب نفسها على الضحك.

لطالما فكرت جميلة أنها هي "كمونة" تلك الفتاة المخطوفة والمحمولة في جيب رجل ضخم إلى مدينة غريبة لم تسمع باسمها من قبل.

لا تتذكر أن أحدًا قد حكى لها هذه الحدوتة كاملة، لم تعرف مصير كمونة الصغيرة بعد أن وصلت إلى اسطنبول، ولا ما حدث لأمها وأبيها، لكنها كانت تشعر أنها كمونة جديدة وأن بيت جابر الشاسع هو الجيب الضيق للمراكبي الذى تختنق بداخله. جيب مراكبي لا بديل لها عنه خاصة بعد أن احترق بيتهم القديم.

***

بانتقال بشرى وابنتها جميلة للعيش مع جابر في بيت العائلة عقب وفاة رحمة، أصبح بيتها الصغير المبنى بالطوب اللبن والمجاور لشجرة التوت الضخمة مهجورًا.

في السنة الأولى لانتقالها لبيت جابر كانت حريصة على أن تطل على بيتها القديم من وقت لآخر، تفتح نوافذه الخشبية للتهوية، تزيل خيوط العنكبوت التي تتجمع في أركان السقف، تكنسه وترش أرضيته الطينية بالمياه. وقبل أن تغادر توقد لمبة الكيروسين، وتعلقها في مسمارها المدقوق في الحائط. كانت حريصة على ترك اللمبة مضاءة أثناء الليل لأن الظلام قد يؤدى بالأرواح الشريرة لسكنى البيت.

في الصباح ترسل طفلتها جميلة لإطفاء اللمبة، وقبل حلول المساء ترسلها مرة أخرى كي تملأ اللمبة بالكيروسين إذا كان نفد منها ثم توقدها. واظبت البنت بشكل شبه يومي على المهمة التي أوكلتها أمها لها من دون أن تفهم الهدف من ورائها حتى كادت اللمبة تتسبب ذات يوم في القضاء على البيت عن آخره.

سقطت اللمبة بمسمارها على الأرض، انكسرت زجاجتها وشبكت النيران في الحصيرة الخوص الجافة المركونة بجوار الحائط وضاعف الكيروسين المنسكب منها من سرعة الاشتعال.

ولأن البيت يقع بعيدا على أطراف القرية لم ينتبه أحد إلا بعد أن أتت النيران على معظم ما فيه من الداخل، وبانت ألسنة اللهب من فتحات الشبابيك بعد أن التهمت خشبها، تجمع الناس محاولين إطفاء الحريق أو على الأقل منعه من الانتشار خارج نطاق البيت، بعضهم كان يحمل الدلاء التي ملأوها من الطلمبة المجاورة، آخرون كانوا يملأون الأواني بالتراب ثم يلقونه على النار التي نجحوا في إخمادها بعد ما يقرب من الساعة.

منذ الحريق توقفت بشرى عن إيقاد اللمبة في البيت ورفضت إلحاح جابر عليها كي تبيعه، اعتادت أن تقول له:"ده بيت بنتي والحاجة الوحيدة اللي باقية لها من أبوها".

أمام إصرارها على عدم بيع البيت قام جابر بتركيب أبواب وشبابيك جديدة له بدلاً من التي التهمتها النار، وتركه مغلقًا.

لا يعرف أحد على وجه التحديد متى بدأ الناس يتبادلون الهمس عن الشبح الذي يسكن البيت، وعن الأصوات التي تصدر عنه ليلاً، أصوات تشبه النشيج العالي الذي يتصاعد وقعه كلما اشتدت الظلمة.. أحيانًا تتحول تلك الأصوات إلى مجرد ضجيج صاخب لأبواب وشبابيك تصطفق بقوة كأنما استجابة لرياح غير محسوسة.

كان الجميع يتكلم عن الشبح باعتباره كائنًا موجودًا بالفعل.. يقولون هو صابر الذي لم تهدأ روحه خاصة بعد زواج أرملته من جابر، يتكلمون عن شبح ينزف الدماء بينما يتجول في غرف البيت وفوق سطحه بيدين مقطوعتين وجسد مسكون بالجراح التي خلفها فيه سير خلاط الطينة، لكن أحدًا لم يعلن أبدًا أنه رآه رأى العين، دائمًا ينقلون عن آخرين من عمال المصنع من القرى المجاورة.

أصبح الجميع تقريبا يتحاشى المرور بهذا البيت ليلاً، ولو حدث ومر أحدهم فإنه يسرع الخطى وإذا استمع إلى أي جلبة يهرول مبتعدًا وهو مؤمن تمامًا أن شبح صابر هو محدثها.

حين وصلت شائعات أن البيت أصبح مسكونًا إلى بُشرى لامت نفسها بشدة لأنها توقفت عن إضاءته ليلاً بعد الحريق، هي بهذا تركته فريسة للظلام وبالتالي للأرواح كي تسكنه، فكرت بينها وبين نفسها أنه كان من المهم أن تطلب من جابر أن يوصل الكهرباء للبيت أسوة بباقي بيوت القرية، شعرت أنها مسئولة عما حدث، كانت متيقنة من أن زواجها من جابر بالطريقة التي تم بها هو سبب كل هذا الغضب.

غير أن الغضب لم يستمر، فمع الوقت أصبحت الأصوات الصادرة من البيت أكثر هدوءًا، واعتاد المارة أن يسمعوا ليلة الجمعة الأولى من كل شهر أصوات ذكر وإنشاد مصحوبة بأضواء ملونة تنبعث على استحياء من فتحات شيش النوافذ.

***

رغم أن أمها قد أصبحت سيدة البيت بعد زواج جابر بها وتطليقه لزوجته الأولى التي رفضت أن تشاركها فيه امرأة أخرى، إلا أن جميلة لم تحس أبدًا أنها في بيتها. يربكها جابر حين يكون موجودًا، ويقتلها شعور أمها الدائم والذي لا تخطئه العين بالنقص تجاه كل المنتمين للعائلة بما في ذلك الأطفال، لا تشعر جميلة بالألفة إلا في الزيارات القصيرة التي يقضيها هشام مع والده قبل أن يعود لبيت والدته في طنطا.

تكره تدليل أمها لسلمى وهيام وخالد وتملقها هشام، لكنها تكره أكثر وصفها له بابن حكمت خلف ظهره، ترى بُشرى أنه ورث منها تعاليها نفسه ورغبتها في التحكم في حيوات الآخرين.

لم تعرف الأم أن وجود "ابن حكمت" في البيت يقرب ابنتها من نفسها، ويشعرها بأمان تفتقده أغلب الوقت.

كان لهشام عينان سوداوان جريئتان وأنف رومانى وابتسامة يتنازع المكر فيها مع الإغواء، كان طويلا أسمر ذا جسد رياضي متناسق وشعر أسود ناعم تنسدل خصلاته القصيرة على جبينه.

حين عاد لقضاء الصيف مع والده بعد غيابه لسنوات بدا كأنما كبر في غفلة من الجميع. الولد الذي اعتادت بشرى أن تختصره في وصف "ابن حكمت" أصبح رجلاً تتعلق به عيون الفتيات أينما اتجه وتحلم به النسوة.. ذكر حقيقي يملأ المكان بحضوره القوي ويوقظ جذوة الشوق والشهوة في صدر جميلة التي لطالما انجذبت إليه منذ أن كانت طفلة صغيرة.

حينما عاد رجلاً في الخامسة والعشرين وهي في السابعة عشرة، اعتادت أن تتلصص عليه وهو يتناول الطعام معهم، وهو يتحدث مع أبيه بخصوص المصنع، أو يهاتف أخريات مجهولات بالنسبة لها بصوت واثق من شرفة حجرته التي يقضي بها فترة ما بعد الغداء.

تتنصت عليه وهو يهمس لهذه أو تلك بكلمات رومانسية فتقتلها الغيرة، لكنها تطمئن نفسها بأنه لو أحب إحداهن بصدق لما عرف أخريات، ورغم كونها غير مرئية كأنثى بالنسبة له، إلا أنها كانت واثقة من قدرتها على جعله يحبها. وجهها لم يكن جميلاً، وبالكاد يمكن أن يلحظها أحد إذا خطت بجوار سلمى أو هيام، لكنها تمتلك جسدًا مبهرًا تخفيه تحت الملابس الفضفاضة التي تشتريها لها أمها وتعتبره كنزها المدفون. غير أن ما جعلها متيقنة من قدرتها على كسب حب هشام هو حبها الشديد له. بسذاجة سنوات عمرها السبعة عشر وبنقص خبرتها كانت مقتنعة أن مشاعرها القوية تجاهه كفيلة وحدها بلفت نظره إليها في النهاية.

باستثناء طيف صابر الذي يحيط بها كالهواء الذي تتنفسه لم تكن قد عرفت رجلاً في حياتها من قبل، ومثل لها هشام كل ما ينقصها في العالم: وسيم.. ثرى.. تحلم به كل الفتيات، واثق من نفسه، يملك سلطة واسعة على من يتعامل معهم.

حين يخرج بعد مكالمة من مكالماته الغرامية التي تتلصص عليها جميلة، تظل ساهرة في الفراندة وحين تقترب الساعة من الثانية بعد منتصف الليل

وتصر بشرى على أن يدخل الجميع للنوم، تجلس ابنتها في فراشها منتظرة أن تسمع الصرير الصاخب لعجلات سيارته الهوندا الحمراء وهي تتوقف أمام البيت.. تود لو تخرج لتصرخ فيه وتعنفه على تأخره في العودة، إلا أنها تكتفي بأن توارب باب حجرتها لتراقبه يخطو مترنحًا ليدخل حجرته.. عندها تخلد للنوم وهي تتخيل نفسها في أحضانه.

كان عليها أن تحافظ على وجه المقامر الخالي من التعبيرات طوال اليوم أثناء وجوده، فلو لاحظت أمها أو أبوه تعلقها به ربما لما سمحا بوجودهما معًا في البيت نفسه. كانت بشرى تخشى على ابنتها منه، لكنها في سرها تمنته زوجًا لها؛ إذ ستكون تلك هي الوسيلة الوحيدة التي تحصل بها على شرعية ما في هذه العائلة وهذا المكان.

باتت جميلة لا تفكر إلا في البحث عن وسيلة تجعله يراها بها، اشتاقت لسنوات طفولتها القريبة حين كانت تستعير منه أعداد مجلة "الشباب" وتتناقش معه فيما نُشر فيها من موضوعات.

كانت تقرأ كل ما ينشر فيها عن نجوم هوليوود وأغاني ساندرا وفيل كولينز ومايكل جاكسون. تحفظ ماركات السيارات والفروق بينها لا لشيء إلا لمعرفتها أنه يهتم بها ولتجد مادة للحديث معه عن أشياء يحبها.

غير أنها تحسد سلمى وهيام على تعاملهما معه ببساطة وجرأة، وتغار من مارجو لاهتمامه الشديد بها حين تأتى لزيارة القرية أثناء تواجده. كانت تتمنى لو تتوقف دقات قلبها عن التصاعد، وأن يختفي ارتباكها وتلعثمها حينما ينظر إليها أو يوجه كلامه لها.

ثم جاءتها الفرصة على طبق من فضة حين طلبت منها سلمى أن تذهب معها هي وهيام لشراء ملابس جديدة من القاهرة، حصلت جميلة على إذن أمها وزوجها وهي تظن أن رشيد هو الذي سيصحبهن إلى هناك، إلا أنها وبعد أن ارتدت ملابسها فوجئت بسلمى تتصل بها لتخبرها أن ترتدي ملابسها بسرعة وأن تأتي مع هشام في سيارته كي يأخذانها هي وهيام.

من الخارج سمعت الصوت الواثق لهشام: "يللا يا جميلة.. سلمى هتقتلني لو اتأخرت عليها"!. بهدوء مصطنع ركبت السيارة بجواره، والتقطا سلمى وهيام من أمام بيتهما، ثم انطلقت السيارة بسرعة لا يتخلى عنها هشام تحت أي ظرف.

ظلت جميلة صامتة طوال الطريق وإن قررت بينها وبين نفسها أنها يجب ألا تفوت هذه الفرصة مهما حدث، كانت تراقب سلمى التي تمازحه – وهي تخبط كتفه من مقعدها بالخلف، أو ترتدي نظارته الشمسية مقلدة إياه وهي تضحك – من دون أن تشعر بالغيرة لأنها تعرف أن سلمى بطبيعتها الصبيانية تعامله كما يعامل صديقان من الجنس نفسه بعضهما البعض.

حين يوجه لها هشام سؤالاً ما، كانت شجاعتها تخونها فلا تجيبه إلا إجابات مقتضبة، لكنها كانت تراقبه وهو مشغول بالقيادة، أو بالثرثرة مع سلمى وهيام، والإنصات إلى أغنيات البوني إم المنطلقة من كاسيت السيارة .

في محل الملابس الفخم المزين بصور لنجمات هوليود عرفت جميلة ما عليها فعله، غابت في بروفة تغيير الملابس لبعض الوقت ثم خرجت بفستان أسود أنيق يحتوى جسدها الممشوق بنعومة ويكشف عن ساقيها الجميلتين حتى الركبة، وعن ذراعيها وجزء من صدرها.

كانت سلمى تفاضل بين التصميمات المختلفة وكذلك هيام المحتارة دومًا في البحث عن موديلات تتناسب مع حجابها، في حين وقف هشام يدخن بنفاد صبر قرب مدخل المحل.

رفعت سلمى رأسها ناحية جميلة وهي تخرج من البروفة فصرخت بمرح:"مش ممكن تجنني"، التفت هشام بضجر إلى مصدر الصوت ليجد جميلة أخرى غير التي يعرفها، كانت قد خلعت الإيشارب الذي تضعه على رأسها و تركت شعرها الأسود الطويل ينساب حتى أسفل ظهرها ووقفت بجسد أنثوي مبهر أمام رفيقتيها، وحين التقت نظرتها بعيني هشام، فوجئت بنظرات الإعجاب في عينيه، فلم تستطع إكمال السيناريو الذي رسمته وخطت مسرعة كي تخلع الفستان.

كانت ساخطة على نفسها، وتمنت أن تصبح غير مرئية فعلاً بسبب خجلها المفاجئ، وهروبها للداخل.. كانت تلك هي المرة الأولى التي تقف فيها بدون الحجاب في مكان عام منذ أن ارتدته وهي في الثانية عشرة من عمرها؛ لذا شعرت أنها عارية تماما من دونه، وأن الجميع ينظرون إليها، ويتأملون شعرها الطويل، كأنما يتأملون جسدًا عاريًا.

في طريق العودة فضلت أن تجلس في المقعد الخلفي تاركةً لسلمى مقعدها بجوار هشام الذي كان يرمقها من وقت لآخر عبر المرآة أمامه بينما يستمع لأغاني البوني إم المنسابة من كاسيت السيارة، كان جسدها بتضاريسه المنحوتة بعناية قد أثار إعجابه إلا أن ما حرك شهوته تجاهها هو هروبها المفاجئ من أمامه لأنه أيقظ فيه غريزته كصياد.. كذكر قوى في مواجهة أنثى ضعيفة.

في الأيام التالية انشغل هشام في إدارة المصنع مع والده، وحاولت هي أن تشغل نفسها بالقراءة وبمساعدة أمها في أعمال المنزل، لكنها كانت تنتظر أية فرصة للاقتراب منه.

بدأت تلاحظ أنه أصبح يردد اسمها أكثر من ذي قبل، إذا أراد شيئا طلبه منها هي لا من أمها أو الخادمة، اعتبرت أن هذا دليل اهتمام ما، أو على الأقل دليلاً على انتقالها من خانة غير المرئيين إلى الخانة الأخرى التي تضم سلمى وهيام ومارجو والغامضات اللاتي يحادثهن عبر الهاتف لمدد طويلة.

غير أن مجيء مارجو المفاجئ عصف بكل أحلامها في الاقتراب منه بشكل أكبر، أحضرها والدها ككل عام لقضاء جزء من أجازتها الصيفية في البلدة وغادر هو في اليوم التالي، في ذلك العام نزلت ضيفة على هيام وسلمى، ولأول مرة بدأت جميلة تلاحظ ذلك الخيط الخفي الذي يربطها بهشام، وانتبهت إلى أن زيارات مارجو للبلدة دائما ما تتزامن مع الفترات التي يتواجد بها هشام. كما لاحظت أنه كف عن مكالماته الهاتفية

الطويلة.. هل كان يهاتف مارجو من دون أن تدرى هي؟ تساءلت بينها وبين نفسها.

مارجو القاهرية المتحررة كانت تقضى جزءًا كبيرًا من يومها في الحديث مع هشام، تدخل حجرته لإيقاظه في الصباح من دون أن تلتفت لاستنكار بشرى وجابر، تذهب معه في جولات بالمنطقة لشم الهواء كما تقول، بل ذهبت معه إلى المصنع، وجلست وسط العمال بملابسها المكشوفة، الأمر الذي أثار جنون جابر، فتشاجر مع ابنه الذي بدا له كمن نسى عادات وتقاليد القرية.

إلا أن مشاجرة والده معه لم تمنع هشام من تقبيل مارجو داخل بستان عمه سميح رغم علمه بوجود جميلة على مقربة منهما مع سلمى.. كانت مارجو قد أخبرتهما أنها تريد الذهاب معهما للبستان الذي يملكه سميح فذهبتا معها وفوجئتا بهشام يلحق بهن.

كانت مارجو ترتدي فستانا أخضر فاتحا بحمالات وورود حمراء صغيرة مطبوعة عليه، وتمسح نقاط العرق عن صدرها المكشوف ووجهها بمنديل ورقى أبيض، طلبت من هشام أن يصحبها لترى البستان من الداخل، وسارت متعلقة بيده وهو يفسح الطريق لها بإبعاد أغصان الشجر بيده. اختفيا داخل غابة الأشجار متشابكة الأغصان فيما الغيرة تحرق جميلة بالخارج.

-٩-

كانت هيام تخطو بدأب نحو أن تكون شخصية أخرى مختلفة كثيرًا عن شخصيتها وهي صغيرة. كانت تتجه إلى شخصيتها الجديدة بالبساطة نفسها التي تضع بها أكياس القمامة أمام باب شقتها كل صباح، بالإتقان ذاته الذي تطهو به أصناف الطعام التي تغمر روائحها الشهية سلمى كلما زارتها في شقتها في طنطا، أو كلما عادت إلى بيت أبيها في أجازة لتجدها هناك هي وأطفالها الثلاثة.

كانت تفضل أن تقضى معظم الوقت مع أمها، لأن زوجها يعمل في قطر، وهي لا تحب أن تظل في شقتها إلا خلال الشهر الذي يقضيه في مصر كأجازة صيفية، أو خلال فترة دراسة أولادها في الشتاء.

تتحول هيام تدريجيًا إلى امرأة لا يشغلها شيء خارج حدود أسرتها الصغيرة.. ربة بيت نشطة وأم وحيدة تبالغ كثيرًا في رعاية أطفالها الذين يبلغ أكبرهم تسعة أعوام.

تبتسم في وجه سلمى كلما تقابلتا بعد غياب، صوتها الذي أصبح خافتًا يعود للارتفاع قليلاً، وملامحها المنمنمة بما يتناسب مع قصر قامتها وصغر وجهها، تتلألأ بسعادة مؤقتة تقطعها عفرتة أحد أبنائها، فتبدأ في الصراخ فيه كي يتوقف مهددةً إياه بإبلاغ أبيه، وعلى الرغم من ارتدائها للحجاب والعباءة عقب زواجها مباشرة، كانت لا تحرم سلمى من تعليق مجامل على تسريحة شعرها أو فستانها القصير أو حتى رائحة عطرها. "تحفة" تقول وعيناها تلمعان بطريقة شخص متشوق للتواصل مع الآخرين.

عادة ما كانت سلمى تتقبل تعليقاتها بنوع من الشكر المتحفظ الذي يشعرها بالذنب بعدها، كانت تعرف أن أختها غير راضية عن عيشها وحيدة بعيدًا عنهم، بالنسبة لها ليس مقبولاً أن تعيش امرأة تخطت الثلاثين بمفردها: لا زوج، لا أولاد، لا حياة عائلية مستقرة.عليها إما أن تلحق بزوجها، أو تعود لبيت أبيها. هي لا تفهم أيضا كيف تكون متزوجة منذ أكثر من ثلاث سنوات و لم تسع للإنجاب.

قبل سنوت قليلة كانت سلمى تسمع هيام تلوم والدها على تدليله إياها وتركها تتصرف على حريتها. حتى عندما أرادت الزواج بظيا اعترضت هيام بشدة وحاولت إثناءها عن الفكرة.

بطريقتها البسيطة حاولت هيام تخويفها من فكرة الزواج بأجنبي لأن ذلك يعني أن أولادها المستقبليين لن يستطيعوا الالتحاق بكلية الشرطة أو الحربية إذا ما أرادوا ذلك، كما أن عدم حملهم للجنسية المصرية سيحوّل حياتها إلى جحيم في حال طلاقها.

من دون فائدة حاولت سلمى إقناعها بأنها لا يمكن أن تفسد حياتها تحسبًا لرغبات محتملة لكائنات لم توجد بعد. ولما لم تقتنع هيام صرخت فيها سلمى أن تهتم بأمورها الخاصة، ولا تتدخل في شئونها. أصبح الصراخ والشجار هما الطريقة المثالية لإنهاء الحديث بينهما.

"مش قلت لك؟" كانت جملة هيام المفضلة مع كل إخفاق لسلمى، تذكرها دائما بأنها نصحتها، وأن فشلها وإخفاقها هو نتاج طبيعي لتجاهلها لأرائها الذهبية. بمهارة تحسد عليها كانت هيام تتخلى عن دور الأخت والصديقة القديمة لصالح دور آخر لأم متسلطة ترغب في السيطرة على حياة شقيقتها وتحويلها لنسخة أخرى من حياتها هي.

عادة ما كانت ثريا تأخذ صف هيام، حتى لو لم تصرح بذلك، تشعر سلمى أحيانا أن هيام تلعب دور الأم المتسلطة مع ثريا نفسها التي تبدو في أحيان كثيرة كأنما تخشى هيام وتحسب لغضبها ألف حساب.

عندما تسمع سلمى صراخها الهستيري وهي تعنف أطفالها بشدة، ثم صوت نشيجها الذي يتلو وصلة التعنيف اليومية، كانت تصاب بالحيرة، إذ كيف للمرأة قليلة الجسم دقيقة الملامح الهادئة ظاهريًا أن تتحول لهذا

الكائن الهستيري الذي يحول صباحاتها إلى جحيم بشجارها الدائم مع أولادها، بالأحرى كانت سلمى تتساءل بينها وبين نفسها: "كيف لهيام اللطيفة التي كانت تتابع مجلات الموضة والفن وتهيم بأغنيات عبد الحليم حافظ وأنغام أن تغدو هذه الشخصية العصبية المتحفظة؟"

تقف في المطبخ بالساعات تطهو وصوتها الجميل الذي ورثته عن أمها ثريا يصدح بأغنية لصباح أو لفايزة أحمد، تفتح نافذة المطبخ كي تخرج منها الأبخرة، وتقف أمام الحوض لتغسل كومة الأطباق والملاعق في سرعة قياسية. تلمّع الرخامة، وتمسح الأرضية، وحين تطيب الأطعمة التي طهتها يكون المطبخ قد تحول إلى جنة نظيفة براقة. فتشد الكرسي الخشبي وتجلس إلى الطاولة لحل الكلمات المتقاطعة في الجريدة.

تتذكر سلمى حين تقف أمامها كلمة صعبة، فيعلو صوتها ليسألها عنها. حتى لو كانت شقيقتها بعيدة جدًا، تظل تكرر السؤال بلا ملل، فتضطر سلمى رغمًا عنها، وكي تتخلص من إلحاح أختها الكبرى، إلى الرد عليها.

تفرح ثريا كثيرًا بتواجد هيام وأبنائها معها في البيت، تجد أخيرًا من يفهمها ويتجاذب معها أطراف أحاديث ودودة على فنجان الشاي المقدس عقب الفطور. تجلسان إلى كراسي البامبو في الفراندة تشربان الشاي وتثرثران بلا توقف، حتى الثانية عشرة، فتتمطأ هيام، وتسرع للمطبخ لإعداد الطعام.

كانتا بارعتين جدًا في تحويل أي شيء تفعلانه مهما بدا تافهًا إلى طقس مخصص لاثنتين فقط، بوجود هيام مع ثريا، لا يصبح لسلمى أو لعمتها نظلة أي محل من الإعراب، تتوارى كل منهما في عالم بعيد وغامض.

هيام مدللة أمها الصغيرة التي كانت لا تفارق مارجو في زياراتها للعزبة، وتقضى معظم وقتها مع خالتها العانس أنوار في بيت جدها لأمها، هي من ذلك النوع من النساء الذي يؤمن تمامًا بأن العنوسة هي أسوأ كابوس يمكن أن تتعرض له امرأة.

ومن سخرية القدر أن خالتها العانس أنوار هي التي رسخت فيها ذلك، رغم حب هيام لخالتها لم ترغب إطلاقًا في أن تكون مثلها. أنوار كانت مقتنعة بأنها ضحية استهتار شقيقتها لولاّ. من كان سيفكر في الزواج من فتاة حملت أختها من دون زواج؟! هذا السؤال تجتره كثيرا بينها وبين نفسها.

حين تقدم سامي لخطبتها، وكانت ما تزال في سنتها الجامعية الثالثة وافقت هيام فورًا، أراد رشيد أن يقنعها بإكمال دراستها أولاً، إلا أنها صممت على الزواج واعدةً إياه بإكمال سنتها الأخيرة وهي متزوجة.

بدت وقتها كطفلة فرحة بألعاب جديدة، وانخرطت فورًا في شراء ملابس العرس وأدوات المطبخ، والأجهزة. كلما خرجت مع خطيبها أو مع والدها عادت بكومة من الأشياء الجديدة، فساتين، قمصان نوم، أطقم كؤوس وأكواب، تحف، ومفارش.

تظل لأيام تفرِّج كل من يزرن بيتهم من القريبات والصديقات على الأشياء التي اشترتها. قبل خطوبتها كانت تبدو مصممة على العمل بعد التخرج، أرادت الالتحاق بدورات لدراسة الكمبيوتر في أجازاتها الصيفية فرفضت ثريا بحجة خوفها عليها من السفر بشكل يومي إلى طنطا في أشهر الصيف.

غضبت هيام وارتفع صوتها، وعادت بعد مدة بفكرة أخرى، اقترحت أن تسكن أشهر الصيف مع خالها مصطفي في القاهرة لدراسة اللغة الإنجليزية في المجلس البريطاني، فلم توافق أمها أيضًا.

في تلك الفترة بدا لسلمى كأن الهدف الرئيسي لأختها الكبرى هو المساومة كي تحصل على مزايا بديلة. فمع كل رفض لفكرة من أفكارها، كانت تلزم حجرتها وتمتنع عن الطعام باكية، وينتهي الأمر بأن يصالحها رشيد، لكن دون أن يرضخ هو أو ثريا لمطالبها. يصحبها معه إلى القاهرة أو طنطا لشراء ملابس وهدايا ثمينة تفرح بها وتنسى مطالبها ولو بشكل مؤقت. لم تحارب أبدًا بشكل جدي للحصول على ما تريد.

بعد خطوبتها مباشرةً نسيت هيام كل هذا، وانخرطت بكل حواسها في الاستعداد لحياتها الجديدة.

والآن حين تبصرها سلمى تمصمص شفتيها بشفقة كلما رأتها منكبة على القراءة أو الكتابة، تتيقن أكثر أنها أمام شخصية أخرى مختلفة تمامًا عن شقيقتها التي كبرت معها. بل أحيانًا تشعر سلمى أن ملامح هيام نفسها وشكلها الخارجي قد تغيرا أيضًا.

ففي الماضي اعتادت هيام أن تكون امرأة جميلة، بوجهها الخمري الصغير وعينيها السوداوين اللامعتين، وشعرها الفاحم الطويل الذي كانت تغطيه بحجاب أنيق كلما خرجت للشارع، وقبل كل شيء بروحها المرحة، وابتسامتها التي لا تفارق وجهها.

ربتها ثريا على أن البنت يجب أن تظل بشوشة أبدًا، ليس من حقها أن تعبس، أو تعلن غضبها مثل الرجال. "البنت لازم تكون زى الفراشة في مشيتها وتصرفاتها" هكذا كانت تقول أمها وهي تضغط على حروف الجملة التي سمعتها من نهاد زوجة أخيها مصطفي.

لذا نشأت هيام الطفلة وهي تحاول أن تتشبه بالفراشات من دون أن تعرف طريقة لذلك. هي لن تستطيع الطيران، ولم يخبرها أحد كيف للمشية أن تشبه طيران فراشة رقيقة، بسنوات عمرها القليلة لم تكن تعرف شيئًا عن المجاز، لذا ظنت أن أمها تطلب منها شيئًا مستحيلاً.

وعلى الرغم من عدم تيقنها من أنها قد حققت نظرية أمها، كان الجميع ينظر إليها باعتبارها الفتاة الأكثر طاعة وبشاشة في العائلة. حين يحضر أحد لزيارتهم تظل حاضرة حوله لتلبية كل ما يخطر له على بال، تُجلس جدها لأمها في مكانه المفضل، وتضع خلفه المساند كي يكون مرتاحًا. تعد له النعناع والشاي الأخضر بدلاً من القهوة والشاي خوفًا على صحته، وتقرأ له الجرائد بصوت جميل تبالغ قليلاً في رفعه. وتظل تتجاذب معه أطراف الحديث ببشاشة بينما تقشر له التفاح الأحمر وتقطعه إلى قطع صغيرة تطعمه إياها بنفسها.

وعندما يجيء موعد انصرافه تصحبه وهي ممسكةً بيده حتى البوابة الخارجية لبيتهم الأبيض. ولا تعود للداخل إلا حين يختفي تمامًا ولا تعود قادرة على رؤيته.

كانت تستمع إلى أغاني عبد الحليم وأنغام باستمرار، وتقلب في مجلات الموضة بحثًا عن موديل يتناسب مع كونها محجبة، أو تدخل بعض التعديلات على موديل يعجبها بإضافة كم طويل له، أو عدة سنتيمترات إضافية إلى طوله، وهي تتخيله عليها.

تذهب للخيّاطة بالمجلات وقد عدلت تصميماتها بالقلم الجاف، تقضي اليوم بطوله معها وتعود آخر النهار بفستان جديد مع وعد باستلام الآخر بعد أسبوع.

من يتذكر هيام في تلك الأيام البعيدة بالكاد سيتعرف عليها الآن، حين يصادفها في أحد شوارع طنطا مثلا بصحبة أبنائها الثلاثة، أو حين يلمحها في شرفة بيت أبيها أثناء زياراتها الطويلة لأمها.

أصبحت ترتدي عباءة سوداء مع حجاب باللون نفسه حين تخرج من شقتها، وطوال تواجدها فيها تظل جالسة أمام التلفاز لمشاهدة برامج شيوخها المفضلين على الفضائيات الدينية وتكتب خلفهم بعض الفتاوى والأحكام. تغضب إذا طلب أحد أطفالها أن تغير لهم القناة كي يشاهدوا برامج الكارتون، أو أحد الأفلام.

لا تترك المشاهدة إلا مضطرة، فتقوم مسرعة للطهي أو لتنظيف البيت.

توزع صراخها وتهديداتها على أطفالها بالتساوي، وحين يتصل زوجها من قطر تثقله بقائمة طويلة من الطلبات.

وعلى الرغم من أن جميلة اختارت الطريق المضاد لها على طول الخط، إلا أن هيام كانت دائما ما تمدحها بشدة أمام سلمى. لا تتوقف كثيرًا عند خلع جميلة للحجاب، أو عند عيشها في فرنسا مدة أربعة أعوام وحدها، أو حتى عند امتناعها عن الزواج حتى الآن. فقط تثنى على نجاحها واستقلاليتها، ولا تنسى من وقت لآخر أن تسأل سلمى عن السبب الذي دفع جميلة لقطع علاقتها بها، فترد أختها بحدة:

- روحي اسأليها!

وتترك المكان غاضبة.

لم تكن هيام تمثل إزعاجًا لسلمى وحدها، إنما أيضا كانت الوحيدة القادرة على إزعاج خالد، وإخراجه عن حياده الدائم. تتصل به في مصنع الطوب الطفلي المجاور للبيت وتطلب منه أن يحضر فورًا، وإلا ذهبت إليه هي وسط العمال. تسأله عن الإيراد، وتطلب نصيبها منه هي وأمها وسلمى. تذكره بتقاعسه عن تقسيم ميراث أبيها بعد وفاته، وتخبره أنها سترفع دعوى قضائية ضده إذا استمر في المماطلة.

لا تستمع لأمها حين تطالبها ألا تكلم أخاها بهذه الحدة. يحتد عليها بدوره، طالبًا منها أن تأتي لإدارة المصنع إذا استطاعت.

في هذه الأوقات تكتفي سلمى بالمراقبة من بعيد، تتابعهما كما لو كانا فأرى تجارب، تتفحص ردود أفعالهما ببرود عالم محايد. صارت تحفظ الجمل التي يتبادلانها. ينظر خالد إليها معتقدًا أنها ما دامت لا تتضامن مع هيام، فهذا يعنى تأييدها له. لم يكن يعي أن الشجار على المال آخر ما يعنيها، مؤقتا على الأقل.

– حسبي الله ونعم الوكيل.

تقول هيام لخالد في نهاية كل مشاجرة. فينظر إليها دون أن يرد. يستدير موجهًا حديثه لأمه:

– عاجبك اللي بتعمله بنتك ده؟ إيه اللي مقعدها هنا أصلا؟ ما بتسافرش ليه لجوزها؟

فترد ثريا بلا اكتراث حقيقي:

– معلش يا بنى طوّل بالك على أختك شوية.

تبدو هيام كأنما تستمتع بالمباريات بينها وبين أخيها، كأنها وجدت فيها لعبة تشغلها مؤقتًا بعيدًا عن عالمها الضيق.

أما خالد فلم يكن مستمتعًا بهذه الحوارات التي تتكرر كثيرًا بحذافيرها، أحيانا تشك سلمى في قدرته على الاستمتاع بأي شيء من الأساس. هو دائمًا مقطب جبينه، كأنه غاضب أبدى من أشياء لا يتذكرها بالضرورة، إنما فقط يتذكر غضبه المختفي خلف قناع الحياد الذي يرتديه.

منذ المرحلة الإعدادية أصبح أكثر انطواءً على نفسه. أصبحت علاقته بوالدة باردة إلى حد كبير، إلا أن رشيد كان فخورًا بتفوقه الدراسي، خاصة حين حقق له حلمه بالالتحاق بكلية الصيدلة جامعة طنطا.

وقتها وكنوع من المكافأة باع أبوه قطعة أرض واشترى له شقة واسعة في أفخم أحياء طنطا وسيارة جديدة. وبعد أن أنهى دراسته، افتتح له في شارع قريب من شقته صيدلية عامرة بأحدث أنواع الأدوية.

لم يعد خالد للقرية بعد الدراسة، خاصة أنه تزوج بمجرد تخرجه من زميلة له. ظل مكتفيا بالأرباح التي يحصدها من صيدليته، ونادرًا ما كان يزور أسرته، حتى الأعياد والمناسبات كان يقضيها في بيت عائلة زوجته.

وحين قرر أبوه فجأة وهو على فراش المرض أن يؤسس مصنعًا للطوب الطفلي على فدانين من البستان المجاور للبيت، بذل كل ما يستطيعه من جهد لإقصائه عن هذه الفكرة. وعلى الرغم من هذا وافق بسرعة على تولي إدارة المصنع بمجرد وفاة رشيد. وترك إدارة الصيدلية لزوجته.

كان يأتي من طنطا حيث يقيم للمصنع خمسة أيام في الأسبوع، ولم يرضخ أبدًا لإلحاح أمه عليه كي ينتقل للإقامة معها هو وزوجته وأطفاله الأربعة.

كثيرًا ما لامت ثريا نفسها لأنها وافقت رشيد حين ساعد ابنه الوحيد على الإقامة بعيدًا عنهم، كان خالد يذكّرها بأخيها مصطفي، لكن مصطفى على الأقل ظل حنونا تجاه أمه وإخوته، عيبه الأكبر تمثل فقط في ضعف شخصيته أمام زوجته نهاد.

أما خالد فابتعاده عنهم ينبع منه هو، لا من زوجته. بالنسبة لثريا تحول ابنها إلى شخص لا يفكر إلا في نفسه، صحيح أنه يلبى كل مطالبهم، يرسل لها كل ما تحتاجه من نقود وكل ما يحتاجه البيت من طلبات مع أحد العاملين في المصنع بشكل يومي، إلا أنه يبخل عليها بالأهم وهو مشاعره ووقته.

على العكس من هيام تؤمن ثريا بأن ابنها يقوم بكل ما يستطيعه كي يقف مشروع والده على أرض صلبة، غير أنه يفعل ذلك مضطرًا، لأنه لم يحب أبدًا أن يصير نسخة أخرى من أبيه أو من عمه جابر.

-١٠-

"لا أعرف لماذا أستحضر ذلك العالم وتلك الشخصيات الآن؟ الحنين ليس دافعي على أية حال، ولم يكن أبدًا كذلك، إنما محاولة استكناه وجودي ذاته، لمسه والتحقق منه، تحسس حوافه المدببة الخشنة، محاولة التأكد من أن الطفلة الصغيرة ذات الشعر البني المجعد والعينين البراقتين هي نفسها المرأة التي تخطو فوق الثلاثين بوجل، وهي تراكم الأيام فوق بعضها البعض دون أن تعيشها فعلاً.

أن أتيقن من أن تلك الأحداث التي تلاشت ولم تعد هناك حدثت بالفعل، وليست من بنات أوهامي وخيالاتي، أنا البارعة حد الموت في خلط الوقائع بالأوهام، والحقائق بالضلالات، والعائشة دومًا بوعي غائم.

غير أنى أعود فألعن الواقع والحقيقة، إذ ماذا تعنى هذه الكلمات في عالم كهذا، ومع حيوات مستلبة كهذه؟

استعذب الاختلاق وخلط الأوراق ببعضها البعض، وأهوى المقامرة التي غرسها أبي في نفسي بمهارة التجار ومكرهم.

حين كنت في الثانية عشرة من عمري قرأت "وإسلاماه" لعلي أحمد باكثير، وامتزجت بشخصياتها: جهاد، قطز، والظاهر بيبرس، وعندما شاهدت الفيلم المأخوذ عن الرواية نفسها في العام التالي، ظللت أردد بهستيريا أنه مخالف للحقيقة، وأن هناك رواية أخرى أمينة للأحداث، كانوا ينظرون إليّ كما لو كنت بلهاء.

ظللت لمدة طويلة بعدها أظن أن ما هكذا يُعالج التاريخ، وأنه يجب أن تُروَى الأحداث كما وقعت بالفعل.

لم أكن أدري أني حين أكبر ستكون مهمتي اختلاق ما لم يحدث، وخلط الواقع بالأوهام، وسد ثغرات الذاكرة عبر الاختلاق والمراوغة. الذاكرة تلك الآلة المخاتلة التي تخذلني كلما اعتمدت عليها".

هذا ما كتبته سلمى في أوراقها وهي تجلس إلى مكتبها في حجرة أخيها خالد، بينما تتشاجر معه هيام – كالعادة – في الخارج حول إيراد المصنع. لم تجد ما تضيفه بعد جملتها الأخيرة، فأخذت تخط بقلمها شخبطات بلا معنى، زهور صغيرة، ووجوه بعين واحدة،ونقاط دقيقة كأنها قطرات مطر. كانت مرتبكة بدرجة أكبر من المعتاد.

بالأمس زارها رشيد في الحلم. لم يفعل ذلك بالطريقة التي قد يتخيلها أحدكم، بالأحرى هو حل فيها، كان كأنه هي، لم يحل فيها وهو بكامل صحته وقوته بل في فترة مرضه الأخيرة، تلك الفترة التي كانا يجاهدان فيها معا للاحتفاظ ببعض من الألق القديم.

كانت هي أباها، وهو هي، لكنها حافظتُ رغما عن ذلك على مسافة تمكنها من المراقبة والرصد.. رصد نفسها وقد صارت ضعيفة بفعل العلاج الذي يسقم أكثر مما يشفي، أوردتها وقد جفت تماما، أنفها الذي بدأ ينزف بلا سبب يفهمه الأطباء، كان ينزف دمًا طازجًا حسب وصف الطبيب الشاب وليس دمًا فاسدًا من البؤر الخبيثة المنتشرة في الجسم.

أكثر ما أرعبها كان الدم الذي سال فجأة من عينها اليمنى، كانت في الحلم مدركة لحقيقة مرضها، استماتت في الدعاء من أجل الشفاء، آخرون جلسوا بجانبها استمعوا إليها بإشفاق وهي تتكلم عن خططها القادمة، لكنها تذكرت فجأة في وسط حلمها أحاسيس المحيطين بها وشفقتهم المرتابة حين كانت تتحدث عن شفاء أبيها في الواقع.. أبوها الذي أصبحت هي هو في هذا الحلم المراوغ، فتمسكت بالصمت.

***

لم يكن كريسماس ذاك العام عاديًا!

كانت السماء مثقلة بالغيوم، غير أنها قررت ألا تتخلى عنها محولة إياها لقطرات مطر، فضلت أن تحتفظ بها في أحشائها لتضع الناس في قبضة الترقب.. ترقب مطر يغسل المدينة ويحررها من الأتربة والموت.

لم يكن الكريسماس بالنسبة لها عاديًا على الإطلاق، كانت أسيرة للخوف والانتظار، تجلس على سرير معدنى بارد في غرفة لا تشبه البيت وعيونها معلقة بآخر يرقد فوق السرير المقابل.

في الطرقات خارج الغرف ثمة بابا نويل مرسوم بالقطن الطبي وملصوق على النوافذ الزجاجية، وممرضات يخلقن فوضى مفعمة بالحياة تخصهن وحدهن لأن الحياة - في الطابق بكامله - كانت مؤجلة بالنسبة لمرضى يستميتون في محاولة ترويض الألم.

في الغرفة التي لا تشبه دفء البيوت، كانت تثرثر مع أبيها طويلاً، كأنها تحاول توريطه أكثر في الحياة، وإبعاد شبح الموت المتربص في ثنايا جسده. مرات كثيرة تنجح اللعبة ويندمجان معًا في نميمة تطال كل معارفهما.. نميمة بريئة تبعد شبح أدوية التراي بي والترامال والليموتاسين والبريميجران التي صارت مجرد مرادفات للموت.

كان الجسد يتمرد على صاحبه، يعلن عصيانه.. الأوردة تجف لدرجة يصبح معها فعل صغير كتركيب "كانيولا" لإيصال الأدوية والمحاليل للجسم أمرًا شبه مستحيل، يتساقط الشعر، ويجف الجلد وتغمره القشور البيضاء الجافة في الأطراف، لكنهما معًا كانا يتشبثان بالحياة حتى آخر لحظة. اعتادت حين ترغب في شده لهذا العالم أن تحدثه عن مصنع الطوب الجديد الذي بدأ في تأسيسه بمجرد علمه بأنه مريض، وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي يخرجه من متاهة المرض تلك.

الآن وفي هذا الصيف القائظ يصر أبوها على ملاحقتها في الأحلام، كأن ثمة رسالة يود أن يبلغها لها، رسالة لم تفلح في فك شفراتها بسهولة.

انكبت على كتب فرويد ويونج، ودرست تفسير ابن سيرين بعناية لكنها لم تشعر أبدًا أنها وصلت لمغزى ما يريده منها خاصة أن الأحلام لم تنقطع، لجأت لطبيبتها فلم تفدها بشيء، أخبرتها مجددًا أن تدون كل أحلامها، وكل ما يرد على ذهنها، وشددت عليها أن تعطيها نسخة من كل ما تدونه.

كانت أهم نتيجة وصلت إليها هي رغبته في أن تترك عالمها وأن تعود للسكن في بيته الأبيض.. ذلك البيت الذي حاربت طويلاً كي تخرج منه مستقلة بحياتها، لكنها عادت بالفعل في النهاية، ورغم هذا ما يزال يطاردها في الأحلام.

منذ بداية مرضه انهارت تمامًا، غير أنها كانت مطالبة بالحفاظ على توازنها أمامه، لأن الأسرة قررت أن تخفي عنه تفاصيل مرضه، شارك الجميع في هذه التمثيلية، على رغم تأكدهم من لا جدواها، منذ البداية ساورته الشكوك بشأن طبيعة المرض، شكوك تأكد منها حين بدأ رحلة جلسات العلاج الكيماوي، ثم الإشعاعي، لكنهم جميعا بالغوا في تكرار أنه لا يعانى إلا من التهاب في العمود الفقري والعظام.

بعد وفاته كان أكثر ما يؤلمها أنها لم تتحدث معه صراحةً عن حقيقة مرضه، لم تحتضنه بقوة ليبكيا معًا و ليواسى أحدهما الآخر بدلاً من التظاهر بأن كل شيء على ما يرام، أصبحت متوحدة تمامًا، فترت علاقتها أكثر بظيا وبالعالم من حولها.

اعتادت فيما بعد أن تتواصل معه عبر الأحلام، كانت أحيانا تراه سعيدًا هانئًا، وكثيرًا ما حلمت أنه ما يزال حيًا، ويعيش بينهم، في هذه الحالة تستيقظ فرحة لكنها تُصدم حين تنتبه إلى أن الأمر كان مجرد حلم. وفي حالات قليلة كانت تحلم بحدث موته يتكرر بشكل لا نهائي وتُفاجأ في كل مرة بردود أفعالها المختلفة وغير المنطقية تجاه هذا الحدث.

الآن ومع مرور ما يقرب من العام على الوفاة بدأت تراه في أحلام أكثر غرابة تدور كلها في البيت الأبيض.

مرة تنكسر إحدى البلاطات الرخام فتكشف عن مياه آسنة مليئة بالطحالب يعوم فوقها البيت بكامله، وينشغل جميع من فيه في محاولات يائسة لنزح هذه المياه ونقلها للخارج، تمامًا كما كانت تنشغل مع خالد في طفولتهما في نزح مياه الأمطار التي تتجمع فوق السطح ولا تصل إلى مواسير التصريف التي أخطأ خالها مصطفي حين صمم البيت الأبيض الفخم في وضعها فجاءت أعلى كثيرًا من مستوى السطح.

ومرة أخرى يجلس أبوها ومعه أمها بداخل صالة البيت وهي بجواره تتشبث بملابسه باكيةً من أثر الخوف، بينما ينهمر الشرر الكهربي من أسلاك الضغط العالي بفعل الرياح القوية شتاء، تصرخ هلعًا من أن يمسك الشرر في أعواد القش اليابسة بجوار الفرن البلدي في فناء البيت فيتسبب في حريق مدمر. وفجأة يتغير المشهد ويختفي هو وتدخل في تيه اختفائه.

غير أن ما أدهشها أن الأمر لم يقتصر على بيت أبيها وحده، فخلال نومها ومع توالى الأيام زارت معظم بيوت طفولتها، حتى تلك البيوت

التي لم تدخلها في الواقع. رأت بيوت أصدقاء الطفولة وزملائها في المدرسة والبيوت القديمة في قريتها، تلك البيوت التي كانت مبنية بالطوب اللبن وهُدِمت وقامت بدلاً منها بيوت حديثة مكونة من دورين وثلاثة.

لكن أعجب البيوت التي دخلتها في مناماتها كان البيت القديم للعائلة.. ذلك البيت الذي انتقلت منه العائلة إلى الآخر الكبير الذي وُلدت هي فيه.

عرفت البيت القديم فقط من حكايات أمها عنه، عن أشجار الليمون المحيطة به، وحجرته ذات الأنوار الملونة وأصوات الذكر الغامضة التي تنبعث منها.

حكايات طويلة يختلط فيها الواقع بالخيال والوهم بالحقيقة اعتادت أن تسمعها مستمتعة بقدرة أمها المبهرة على الحكي من دون أن تناقشها حول لا منطقية بعض الأحداث، أو تناقضها مع حقائق تعرفها عن تاريخ العائلة.. عائلة أبيها التي لم تكن أمها تحبها كثيرًا، ورفضت دومًا الاندماج فيها، وعاملتها العائلة بدرجة أكبر من اللامبالاة والتجاهل.

بدا جمال ثريا وأنوثتها الشديدة واعتزازها بنفسها وبعائلتها كأنما يمثل تهديدًا خفيًا للآخرين بشكل عام ولعائلة رشيد على وجه الخصوص.

***

"الرز يقول أنا النوتي نزلت البحر بنبوتي لقيت الحُب مشبوكي خلصته برمش عينيه"

لا تتذكر سلمى على وجه اليقين هل هذا ما كانت تغنيه أمها بصوتها العذب حين فاجأتها بوجهها الغارق في الدم المتجلط المختلط بالتراب أم لا؟!

هي غير متيقنة من هذه النقطة، إلا أنها تتذكر أن ثريا صرخت وهي تحتضنها بملابسها التي اتسخت بفعل الطين والدماء.أدخلتها خلسة من الباب الخلفي كي تنقذها من براثن جدتها.

لسنوات طويلة لن تنسى سلمى منظر كتل الدماء المتجلطة وهي تنزل من أنفها، ولا طعم الدم المختلط بالتراب الذي لم تفلح المياه التي تغرغرت بها عشرات المرات، وهي تستحم أن تبدده. ظنت وقتها أن هذه اللحظة لن تنمحي أبدًا من ذاكرتها، كما لن تنمحي ملامح الهلع التي ارتسمت على وجه أمها وهي تلتفت حولها خوفًا من حماتها.

كان اليوم هو أحد السعف السابق لشم النسيم، خرجتْ مع ماريز وجميلة لسرقة البصل الأخضر من الحقول، في هذا اليوم يعرفُ الفلاحون الذين يزرعون البصل أن حقولهم سوف تكون هدفًا سهلاً للأطفال الذين لا يبيتون ليلتهم إلا ورأس بصل واحد على الأقل تحت وسادتهم، يستيقظون باكرًا متسابقين لإلقائه في النيل قربانًا له كي يحميهم من الكسل ويبعد عنهم الشرور واللعنات حتى شم النسيم التالي.

اتجهت سلمى ومعها ماريز وجميلة إلى حقل مجاور للنيل.. اختبأن وسط نباتات الحلفا وذيل القط حتى اختفي صاحب الحقل، فانطلقت كل منهن تحاول انتزاع ما تقدر عليه من بصل أخضر، وفجأة عاد الرجل. نجحت ماريز وجميلة في الفرار في حين أمسك بسلمى، وكي يجعلها عبرة للآخرين قيدها إلى شجرة كافور على رأس حقله، من غير أن يلتفت لصراخها وعويلها. لم يطلق سراحها إلا حينما عرف هوية أبيها.

سارت وهي ترتجف من شدة الخوف. كانت غير قادرة على رؤية الطريق أمامها بوضوح. انزلقت قدمها في منطقة خطرة. وقعتْ واصطدم وجهها بالأرض الصلبة قبل أن تتدحرج عدة مرات فوق التراب.

ستظل تتذكر هذه السقطة، ومعها كل الارتطامات والضربات التي تعرضت لها كأنما تؤرخ لنفسها فقط بهذه الصدمات ولا شيء غيرها.

صدمات الطفولة والظلمة الحالكة المحيطة بها هما أبرز ما تستعيده دائما. هو الظلام الذي يحدد كل حياتها ويؤطرها.. ظلمة دامسة لا يخترقها أي شعاع ضوء، ظلمة يكللها عواء ذئاب بعيدة ونباح كلاب هائجة، نقيق ضفادع ونعيق بوم يجلب الشؤم.

حين تجهد ذاكرتها وتلمعها مثل مصباح قديم لا يأتيها سوى العتمة: تختفي مصابيح الكيروسين وقد جلست النسوة لتنظيف زجاجها بورق الجرائد المبلل ببصاقهن.. الكلوبات شديدة الإضاءة التي تجذب الناموس وحشرات الليل صيفا للالتصاق بزجاجها قبل دخول الكهرباء للقرية. تتلاشى الجلسات الليلية تحت ضوء القمر، ولا يتبقى إلا الظلمة المحيطة

بالبيوت والتي تحوّل الشجر على طول الطرقات إلى أشباح هائلة الحجم تستعد للانقضاض عليها وحدها.

الصباح كان مملكتها التي تمدها بالقوة. بفضل تدليل أبيها وأعمامها لها تكون هي الطفلة الصغيرة ملكة متوجة على كل من في البيت، لكن ما أن تبدأ الشمس في الغروب والانزواء حتى يزحف الخوف إلى قلبها.. مع الحلول التدريجي للظلمة تفقد قدرتها تدريجيًا حتى تتحول في النهاية إلى فأر مذعور يمسك بطرف جلباب أمه تابعًا إياها أينما ذهبت بحثًا عن بعض الأمان.

يختفي باقي أطفال البيت خلف أبواب الغرف المظلمة وفي بئر السلم، وحين تمر الفأرة التي هي سلمى متتبعة خطوات أمها، يجذبون ضفيرتها الطويلة بقوة فتصرخ من الرعب وتنطلق الأم في سب الملاعين الذين ينغصون حياة طفلتها الهلعة دومًا.

يخترع خالد وهيام حواديت مخيفة عن "أم ديل" الجنية التي تطارد الأطفال لتأكلهم وتشرب دماءهم، ويكون على سلمى أن تعاني طوال ليالي طفولتها في أحضان تلك الجنية شاربة الدماء.

لم تكن جبانة، على العكس من ذلك اتسمت منذ سنواتها الأولى بقدر كبير من الجرأة والشجاعة بفضل تربية أبيها لها. ورثت عنه مهارة التجار ومكرهم.

وهي في الرابعة من عمرها نهرها عمها جابر بعنف على خطأ اقترفته، فصرخت فيه مهددةً ألا يرفع صوته فيها مرة أخرى من دون أن تخشاه الأمر الذي أسعد أباها كثيرا! غير أنها كانت ضعيفة تمامًا أمام مخاوفها الميتافيزيقية التي لازمتها منذ الطفولة حتى الكبر، كان خيالها هو لعنتها الأولى.. امتلكتْ خيالاً جامحًا يحول أبسط الأشياء والرموز إلى خيالات مخيفة وأشباح مرعبة. طوال حياتها عاشت في حرب ضد خيالها.. حرب ضد نفسها.

لقد ربى رشيد ابنة مدللة قادرة على مواجهة أشد الأشخاص بأسًا لو أرادت، إلا أنها ضعيفة وهشة أمام مخاوفها الصغيرة واللاعقلانية.

حين كانت العائلة تعيش كلها في بيت واحد تحكمه جدتها رحمة اعتاد جابر أن يعترض على طريقة رشيد في تربية سلمى وتدليله المبالغ فيه لها، إلا أن هذا الاعتراض لم يزد أخاه إلا إصرارًا على مواصلة ما يفعله.

كان واثقًا من أن ابنته مختلفة عن الآخرين.. أكثر ذكاءً، أشد موهبةً ربما. كان يؤمن بها أكثر من إيمانه بأي شيء آخر في الحياة، لم يكن لهذا الإيمان مبررات غير قدرتها منذ كانت في الثالثة من عمرها على سرقة الأنظار إليها والاحتفاظ بالآذان مصغية لها بغض النظر عما تقوله، لكل هذا كانت صدمتها شديدة حين انتهي بها الأمر كأي فتاة عادية أخرى، تعمل في وظيفة مملة بلا أفق واعد، وتفشل في تحقيق حلمها بالاختلاف الذي راهن عليه والدها.

لا تتذكر سلمى تحديدًا ما فعله الرجل بها بعد أن قيدها إلى الشجرة، هل ضربها أم لا؟ (٩) وما مقدار المدة التي قضتها على هذا الوضع؟ تبدو تلك النقطة ككثير من ذكريات طفولتها مبهمة وغامضة، أو بالأحرى متعددة الوجوه بحيث تتذكرها كل مرة بشكل مختلف وتفاصيل أخرى. أحيانًا مثلا يأتيها وجه أمها الخائف من حماتها، وهي تحتضنها بملابسها الملوثة بالطين والدماء، وتتخيل أن كل ما يخص هذه اللحظة محفور في ذاكرتها، لكنها تعود فتتذكر أن جميلة كانت تعيش وقت هذا الحدث في بيت العائلة بعد زواج أمها من جابر، وهو ما يتنافى مع وجود رحمة على قيد الحياة. ذلك لأنها لم تعترف أبدًا بهذا الزواج، ورفضت دخول بشرى وابنتها للبيت طالما بقيت هي حية، وهو ما حدث فعلاً، فجابر لم يحضر زوجته الجديدة وابنتها للسكن في بيت العائلة إلا بعد وفاة أمه، وبعد ذلك بمدة وجيزة كان رشيد قد بنى بيته الأبيض الفخم لينتقل بأسرته إليه ومعهم شقيقته "نظلة"، في حين جدد جابر بيت العائلة وبقى فيه.

لا يُعقل أيضا أن ماريز كانت مع سلمى وجميلة، لأنها كانت تسافر دائما لقضاء الأعياد ومنها عيد القيامة مع أسرتها في قريتهم الأصلية في أسيوط.

ها هي ذاكرة سلمى تعود لإفساد كل شيء.

***

(٩) أخبرت سلمى طبيبتها في الجلسات الأولى بينهما أن الرجل حاول اغتصابها، ثم تراجع خوفًا حين عرف أنها ابنة رشيد، لكنها عادت وأنكرت هذا بشدة في الجلسات التالية.

لم يكن هناك سوى الصمت حين حمل ظيا حقيبته وغادر من دون أن يلتفت وراءه. مرت الدقائق ثقيلة وهو يحزم الحقيبة في حجرة النوم بينما تجلس سلمى في الصالون منكمشة في كرسيها كقطة تشعر بالبرد.

لم يكن هناك تبريرات، أو كلمات وداع، أو حتى نظرة تحمل شبهة اعتذار.

جلست فقط في الفوتيه الضخم تقضم أظافرها بشرود، بينما هو يحمل حقيبته المثقلة ويغادر بهدوء.

لم تبك أو تندم. كانت تشعر كأن ما يحدث لها يخص شخصًا آخر سواها لا يهمها أمره ولا تأبه به. لطالما عرفت أن هذه الخطوة آتية بلا ريب، لكنها لم تتوقعها على هذا النحو الباهت والمحايد. تخيلت أن نهاية قصتهما لابد أن تكون مختلفة: أكثر حميمية ربما، أكثر جنونًا وصخبًا.

تخيلتها مفعمة بكلمات ضخمة واتهامات غاضبة تجترها فيما بعد بنوع من الحنين والألم الخافت.

إلا أن "الفينالة" جاءت بلا كلمات تُذكر، صامتة ذلك الصمت الذي تكرهه وتخشاه.. هي تحب الكلام حتى ولو بلا معنى أو طائل. لطالما خافت من صمت جميلة وهدوئها. وحينما بدأت فترات الصمت تطول بينها وبين ظيا، ارتعبت من أن يتركها كما فعلت جميلة، وهو ما حدث فعلاً.

تخشى سلمى الصامتين، بالأحرى لا تفهمهم ولا تتوقع تصرفاتهم القادمة وهي بطبيعتها تكره المفاجآت. في بدايات علاقتها بظيا، حينما كانت جذوة الحب لا تزال مشتعلة، كان يتكلم معها بلا انقطاع، عن أي شيء وكل شيء. بإنجليزيته المتقنة، أو بعربية ركيكة، يحكي لها عن حياته، طفولته وكل ما مر به كأنما يشركها عبر الحكي في حياته السابقة على معرفتها به. لذا لم تتوقع أن يتحول بمضي الوقت إلى هذا الشخص الصامت الضجِر الذي لا يغادر حجرة مكتبه إلا إلى المطبخ، أو إلى الحمام.

"لا أمل فيكِ. لن تنضجي أبدًا. لن تصيري شخصية واقعية على الإطلاق".

اعتاد أن يقول لها ذلك في السنة الأخيرة من عمر زواجهما القصير. أصبح يتعامل معها كأنما تمثل الشرق بينما يمثل هو الغرب، والشرق والغرب لا يلتقيان كما أكد كيبلنج!!

– ظيا أنت مش غربي أصلاً، وأنا مش بأمثل غير نفسي. أنا حتى مش بأمثلها ولا فهماها.

لا يرد عليها رغم انزعاجه من تأكيدها أنه ليس غربيًا. هو يكره من يذّكره بشرقيته، يقدم نفسه دومًا باعتباره بريطانيًا، ويجهد نفسه طوال الوقت للتخلص من أي لكنة باكستانية قد تشوب إنجليزيته التي ينطقها بلهجة أكسفورد المترفعة، وحين يندهش من أمامه من ملامحه الشرقية وسمرته الجميلة، يوضح مضطرًا أن والديه من باكستان. أمه من الباشتو وأبوه كشميري.

هو الذي غادر كشمير الباكستانية في عمر الخامسة مع والديه إلى إنجلترا يقول أن لغة الباشتو التي اعتاد أن يسمعها من عائلة أمه حين كان يزورهم معها قبل الهجرة ما يزال صداها يتردد في ذاكرته كموسيقى غامضة. من وقت لآخر يسمعها في ذهنه كأغنية شجية تذكره بسنواته الخمس الأولى.

أحبت فيه سلمى تلك النعومة الخفيفة التي تؤكد ذكورته ولا تنفيها، شغفه بها الذي لم يحاول أن يداريه منذ أن وقع بصره عليها لأول مرة. لم تكن قد انتبهت بعد لتناقضاته العديدة.

معه تعرفت على جسدها واقتربت من نزواته ونوبات شغفه وشهوته. انغمس كلاهما في الآخر بسرعة أدهشتهما معًا.

حين أخبرت والدها برغبة ظيا في التقدم لطلب يدها، انزعج بشدة وصرخ في وجهها، بل حتى هم أن يضربها. إذ كيف تجرؤ على الزواج من شخص أجنبي على غير ديانتها؟ شرحت له بالتفصيل الممل أن ظيا مسلم من باكستان، وأنه فقط يعيش مع والديه في إنجلترا ويحمل جنسيتها. قالت له أن اسمه ظيا هو التحريف الباكستاني لاسم "ضياء" العربي. فطلب أن يراه ويتحدث معه أولاً.

وافق على الزواج عندما لمس إصرار ابنته المدللة على الرغم من المعارضة الشديدة لشقيقها خالد. تعاطف رشيد مع الحب العنيف الذي لمسه بين ابنته وذلك الأجنبي الغامض بالنسبة له، ظن مثل آخرين أن الحب هو أكثر

الأشياء قوة في العالم، لم يخبره أحد من قبل أنه أيضًا أكثر الأشياء هشاشة.

كانت سلمى معوقة بطريقتها الخاصة. تمثلت إعاقتها في عدم وعيها بجسدها أو إحساسها به. امرأة في الثلاثين بجسد مثير عامر بالمنحنيات والاستدارات، إلا أن وعيها به كان وعى طفلة صغيرة بجسدها الغض. بدت دائمًا كأنما نما جسدها ونضج في غفلة منها ومن إحساسها به.

كانت ترتبك إذا أطال أحدهم النظر له، تشعر أنه يلسعها بنيران غير مرئية، لكنها حامية. ترتبك بالأساس لأن ذلك يؤذي تلقائيتها في التعامل مع نفسها، يخرجها عن طفولة حواس ارتضتها وتواءمت معها.

لم يكن هذا يضايقها، إلى أن بدأت علاقتها بظيا، في البداية أعجبه ذلك. ظنه نابعًا من تحرر شديد ومن عدم الوقوع في أسر فكرة الجمال بشكل مطلق. رآها غير منتشية بجمالها أو حتى مكترثة به، هي جميلة لأنها لا تدرك أنها كذلك، كما أخبرها.

غير أنه فيما بعد بدأ يدرك مشكلتها بشكل أعمق، كونها حالة فرويدية بامتياز مثلما اعتاد أن يردد بيقينية تجرحها.

بعد انطفاء جذوة الشغف الأولى التي أنستها مشاكلها مؤقتًا، تحولت العلاقة بينهما تدريجيًا إلى شيء مقيت يضغط عليها، كان جسدها يتمرد، بخرسه وحياده وبروده. لا يستجيب للمساته أو مداعباته، تحول إلى جسد ميت، كأنما ينتقم منها ومنه على طريقته الخاصة. بموته كان يحيل جسد ظيا هو الآخر لجثة غير قادرة على إشعال الرغبة فيها.

في السابق كان يكفي أن تراه أو تتابع حركات يده وأصابعه التي يمررها من وقت لآخر فوق رأسه كي تشتعل رغبتها. ربما سيندهش ظيا إذا عرف أن أصابعه الطويلة الرشيقة إضافة لنظراته المفتونة بها كانا أول ما جذبها إليه.

أما الآن فلم تعد حتى قادرة على استعادة ذكرى النيران التي كانت تشتعل في جسدها بمجرد أن يلمسها.

تستعيده فقط عبر ابتسامته اللطيفة، والهدوء الذي يتعامل به مع أعقد المواقف. عبر قراءته لأشعار أبى نواس بعربيته التي تضحكها من فرط ركاكتها.

تستعيده قبل كل شيء بروائح القرفة، الكركم، العُصفر، والزعفران وبهارات الماسالا.. بالنكهة الحريفة للأطعمة الكشميرية والباكستانية التي اعتاد أن يتفنن في إعدادها مستخدما زيت الخردل معها جميعًا: دجاج جالفريزي، مرقة الباذنجان باللوز، ماسالا الدجاج.

أخبرها ذات مرة أن المطبخ وروائح البهارات المميزة هما أشد ما يربطه بثقافته الأولى. حين يقف في المطبخ كعادته لإعداد أحد أصنافه المفضلة، يشعر أنه في بيت والديه في مانشستر، بل حتى في بيوت أقارب أبيه في كشمير، تلك البيوت التي لا يتذكرها، إنما تتسرب إليه من وقت لآخر عبر روائحها المميزة.

كان يندهش من كرهها لرائحة القرفة، والكركم، ولمذاق الشاي الأخضر والزنجبيل، من توجسها من المأكولات الغريبة عما اعتادت عليه. بالنسبة له الرائحة والمذاق هما المدخل الأول لجنة الحوّاس، وهي لن تتعرف على جسدها ورغباتها بشكل صحيح، إذا لم تفتح كل مسامها للمذاقات الغنية وروائح الطعام المثيرة.

كانت تقف بجواره وهو يطهو، فتتعجب من استغراقه التام فيما يقوم به، ينسى وجودها أحيانًا، ويندمج بكليته في طهي مكلل بموسيقى شوبان المنبعثة من الكاسيت في حجرة المكتب. فور زواجهما سافرت معه إلى مانشستر للتعرف على أسرته. ذكرتها والدته بعمتها نظلة، الهدوء نفسه، والقراءة المستمرة في القرآن، والطرحة البيضاء التي تغطى بها شعرها.

أعدت لهما الأسرة بمناسبة الزواج وليمة "وازوان" (١٠)، أحبت سلمى الطقس المصاحب لأكلها، في مجموعات من أربعة أشخاص. أعجبها أن تشارك في هذا التقليد الكشميري البحت في آخر مكان تتوقع فيه ذلك وهو إنجلترا. تغلبت مؤقتًا على توجسها من الأكلات الغريبة عليها، ربما بسبب طابع المرح الذي غلّف المناسبة.

أحبت من بين أصناف الوازوان الريستا بشكل خاص، أو كرات لحم الضأن المطبوخة في صلصة مرق اللحم، وحين جاء دور الجوشتابا

(١٠) وجبة شهيرة في المطبخ الكشميري تقدم في المناسبات المهمة، وعادة ما تتكون وجبة الوازوان التقليدية من ٣٦ صنفًا، من بينها الريستا وروجانجوش، وجوشتابا.

في نهاية الوجبة كانت قد أتخمت من الأصناف السابقة، كما لم تستسغ كون كرات لحم الضأن في الجوشتابا مطهوة في صلصة مرق اللحم المغطاة باللبن المتخثر. بدا لها خلط لحم الضأن مع اللبن المتخثر أمرًا مثيرًا للغثيان.

كانت على وشك إعلان انتهائها من الأكل مع تقديم الجوشتابا، إلا أن ظيا همس لها بأن رفضها الأكل من الجوشتابا يُعد إهانة تجرح مشاعر من قام بإعداد الوازوان. فضغطت على نفسها وأكملت تناول الطعام من دون رغبة حقيقية.

ربما كان ظيا سيصبر على سلمى لو اقتصرت المسألة على برودها معه في السنة الأخيرة من عمر زواجهما، لكن ما عجّل بنهاية علاقتهما هو عدوانيتها الشديدة تجاهه، رفضها لأي كلمة يقولها، تمسكها بأوهامها، وتصديقها لها أكثر من الحقائق نفسها.

كان من الطبيعي بالنسبة لها أن تحاسبه حتى على أحلامها، إذا حلمت بأنه يخونها مع أخرى، تقضي الصباح في استجوابه، والتشكيك في إخلاصه لها. وينتهي الأمر ببكاء هستيري أصبح لا يطيقه، ولا يفهمه.

وعلى الرغم من انفصالهما قبل عودته نهائيًا إلى مانشستر، أخفت سلمى خبر الانفصال عن والدتها وعمتها، أخبرت الجميع أنهما يمران فقط ببعض المشاكل، وأنها سوف تلحق به في أقرب فرصة.

وهي في بيت أبيها منغمسة فيما اعتبرته رواية تكتبها، حلمت به ذات ليلة، كان يصلي في صالة البيت، على الرغم من أنه لا يصلي في الحقيقة.

كان الحلم مغلفًا بروائح البهارات التي اعتاد أن يستخدمها في الطهي، وكانت تشعر براحة عجيبة، تشبه تلك الراحة التي كانت تحسها في بداية علاقتهما. وفجأة بدأ وجهه يتبدل ليحل محله وجه خالها مصطفى. في لحظة يكون الشخص المصلي هو ظيا، وفي التي تليها يصير مصطفى.

حكت سلمى لعمتها نظلة حلمها مع إغفال التفصيلة الأخيرة، فأخبرتها عمتها أن ظيا سوف يعود لها قريبًا، وسوف يعيشان معًا حياة مستقرة. فصلاته في بيت أبيها تشير إلى هذا. تذكرت سلمى تفصيلة تحوله إلى خالها مصطفى في نهاية الحلم، فأخبرت عمتها بها. قطبت نظلة حاجبيها، وأخبرت سلمى بحزن أن هذا التحول يعكس معنى الحلم تمامًا. لأن"الخال" في الحلم ينبع من "التخلي"، وهذا معناه أن ظيا سيتخلى عنها.(١١)

(١١) طريقة في تفسير الأحلام تعتمد على حروف الكلمة أو الأصل اللغوي لها، وفقا لهذه الطريقة يصبح الذهب دلالة على شيء سيئ لأنه يقترب في خروفه من الذهاب، وكذلك الياسمين، لأن الحروف الأولى منه تتطابق مع حروف كلمة اليأس.

-١١-

بعينين مغمضتين وذهن يطفو فوق غيمة من أحلام متراكمة جلست سلمى فوق فراشها وقد أسندت ظهرها إلى الوسادة ورأسها إلى خشب السرير البني المائل للبرودة.

لم ترغب في فتح عينيها دفعة واحدة كي تحتفظ ببقايا حلمها.

فكرت في أن تخرج لتجلس على الأرض أسفل قدمي عمتها نظلة كقطة أليفة تستمع منها لتفسير هذا الحلم؛ إلا أنها غيّرت رأيها كي لا تستغل أمها وعمتها الفرصة لإغراقها في سيل من الأسئلة الفضولية. كان هذا أحد الأيام القليلة التي تستيقظ فيها غير مثقلة بالكوابيس المزعجة والصداع المستمر.

لم ترغب في فتح تفسير ابن سيرين الموضوع أبدًا فوق الكومود المجاور لفراشها، وابتسمت بمرارة حين تذكرت ظيا فجأة وتمنت لو كان غارقًا في النوم بجوارها الآن.

هادئة كانت تسير في شارع لا ينتمي في درجة نظافته وتنظيمه للقاهرة، لكنها شعرت أنه الشارع الذي تقيم فيه. لامعًا بدا الإسفلت لدرجة تخيلت معها أنه يمكنها أن ترى صورتها منعكسة عليه إذا دققت لبرهة.

وعلى جانبي الشارع تراصت أشجار ضخمة زاهية الخضرة لامعة الأوراق نظيفتها تعرفت فيها على أشجار الجميز رغم أن أوراقها في الواقع ذات لون داكن ولا تمت بصلة لهذا اللون اليانع الذي تراه في حلمها، كانت مندهشة وهي ترى الثمار الناضجة المائلة للون البرتقالي الباهت وقد تراصت مزدحمة على السيقان الخشبية والأفرع الغليظة للأشجار بدلا من أن تنمو كباقي ثمار الأشجار الأخرى تحت الأوراق.

كان كل ما يخص هذه الشجرة في الواقع قد توارى في زاوية منسية من زوايا ذاكرتها.

تذكرت فجأة أن جميلة، وإن بدت في الحلم غير محددة الجسد وموهة الملامح، أخبرتها أن هذه الشجرة غير موجودة في القاهرة. أصبح شاغلها طوال ما تبقى من الحلم أن تصرخ في جميلة بظفر وهي تشير إلى الأشجار المزهوة بخضرتها.

مغمضة العينين فكرت أنها لا تتذكر أي نقاش دار بينها وبين جميلة في الماضي حول وجود أشجار الجميز في القاهرة من عدمه، لكنها كانت مندهشة جدًا من حقيقة نسيانها أن ثمار الجميز تنمو على الجذوع الخشبية، حتى حين افاقت تمامًا لم تكن مدركة أن هذه هي الحقيقة، و لم تعرف ذلك على وجه اليقين إلا فيما بعد، حينما مرت ببستان عمها سميح كي تزوره وجلست بجانبه تحت شجرة الجميز المعمرة التي تتصدر بستانه.

قامت سلمى بتكاسل، غسلت وجهها وأسنانها، وجهزت لنفسها شطيرة جبن أبيض بالخيار، وكوبًا من الشاي. أكلت الشطيرة بسرعة وهي في المطبخ ما تزال، وأخذت معها كوب الشاي متجهة إلى غرفة خالد.

تحركت بسرعة خشية أن تقابل أمها أو عمتها نظلة. دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفها محاذرةً أن تصدر أي ضجة. في هذه الأيام كانت تتحرك كشبح، تحاول قدر الإمكان أن تتحاشى الجميع، كي لا تهدر طاقتها في أي شيء خارج المهمة التي تنجزها.

جلست إلى المكتب، ووضعت كوب الشاي فوقه، أخرجت أوراقها، وبدأت في قراءة ما كتبته حتى هذه اللحظة، وهي تمسك بيدها قلمًا أخضر كي تصحح به كلمة، أو تشطب أخرى.

عندما انتهت من قراءة ما دونته، بدأت تشعر بانقباض شديد، لم تفهم مبرره، لفت نظرها وجود بعض الأوراق الناقصة، فتشت عنها من دون جدوى. كانت أجزاءً كتبت فيها عن جميلة. أحست فجأة بالنقمة على صديقتها القديمة كأنها هي المسئولة عما حدث.

نحّت سلمى أوراقها جانبًا، أخذت ورقة بيضاء، وعادت تكتب بتوتر:

هي لم تعرف أني أتابعها، ولم تتوقع ذلك. لا تدرك أيضًا مدى قربي منها والتصاقي بها. لم أكن مجرد صديقة لها، ويقتلني أنها تتجاهل هذه الحقيقة. لم أكن معها حين اتحدت بهشام للمرة الأولى. ولم أحس بهلعها في تلك الليلة البعيدة التي اختلطت فيها دموعها بمخاطها وهي تبكي مرتعشة في ظلام بيتهم القديم. لم أجرب عدم سيطرتها على جسدها حين كانت تقوم من نومها فجأة فتدوخ وتعود للرقاد أيام إصابتها بالأنيميا الحادة. ولم يقتلني الفضول لمعرفة أين يذهب هشام حين يغادر البيت ولا يعود إلا مع طلوع الفجر، ولا مع من يتكلم هاتفيًا بالساعات كما قتلها هي. لم أفعل أيًا من ذلك، لكنني رغم هذا الأقرب إليها من الجميع حتى أمها وطيف أبيها.

لم يكن باستطاعتي إلا أن أكون صديقتها المقربة. اعتدنا أن تلازم إحدانا الأخرى طوال فترة طفولتنا. بدا حرصنا الشديد على أن نكون معًا أمرًا غريبًا ومثيرًا بعض الشيء بالنسبة للآخرين. ثنائي من الصعب أن يجتمع، أنا الباحثة دومًا عن عيون تتعلق بي والراغبة في أن أكون في بؤرة الحدث والاهتمام، وجميلة الخافتة ذات الحركات الجسدية الخجول التي تبدو كما لو كانت ترغب في أن تكون خفية.

لو قُدر لنا أن نتواجد في ظروف أخرى ربما لما تبادلنا سوى عبارات المجاملة المقتضبة، غير أن هذا التناقض في شخصيتينا ربما يكون هو ما جمع بيننا، فخجل جميلة ورغبتها في عدم لفت الأنظار كان ما أحتاجه بالضبط لأنه جعل المجال مفتوحًا أمامي لاستعراض نفسي أمام المحيطين.

لكن دائمًا ما خُيل إليّ أن شخصية جميلة أكثر تركيبًا وثراءً بمراحل من تلك التي امتلكها، بدت لي كمن يمثل دورًا معينًا لأغراض محددة. ما أسهل خداع المختالين بذواتهم، وجميلة عرفت كيف تسيطر عليّ من الظل باستخدام خيلائي ضدي.

كانت تعامل الجميع بلطف مبالغ فيه.. طوال سنوات الإعدادية ثم الثانوية لم تثر أي خلاف مع أحد من زملائها، مهذبة دومًا ومجاملة الأمر الذي اعتبرته يعني أنها تعامل الجميع من الخارج فقط، لم تسمح لأي شخص أن يكون صديقًا حقيقيًا لها، حتى أنا.

***

"رايحة فين؟" قالها هشام، ثم بدأ كل شيء.

كانت جميلة قد وضعت له صينية الغداء على الكومود المجاور للسرير، واستدارت استعدادًا للخروج، ففوجئت به يمسك يدها متسائلاً وهو ما يزال راقدًا في فراشه ، شدها برفق لتجلس بجواره فلم تمانع، وإن نظرت لأسفل. مرر أصابعه بهدوء على شفتيها ثم ذقنها ورقبتها فبدأت اللذة تسري في جسدها ككهرباء منعشة.. قرّب وجهه من وجهها ولثم شفتيها بشفتيه فانهارت أي قدرة لها على المقاومة. كانت المرة الأولى التي يقبلها فيها رجل، لم تكن تعرف عن الجنس إلا مجرد أفكار غائمة استمدتها من الأفلام، لم يخبرها أحد أن قبلة صغيرة يمكنها أن تفكك أوصالها وتمنعها من السيطرة على نفسها.

أغمضت عينيها فتسللت أصابعه من بين أزرار بيجامتها لتصل إلى مفرق ثدييها.. شعر ببعض الظفر وهو يلمح ارتعاش جسدها

المستسلم له المتعطش للمساته.. فتحت شفتيها قليلاً كأنما تنتظر قبلته.. جذبها نحوه أكثر من ذي قبل ليقبلها قبلة نهمة ففوجئ بها تقبله هي الأخرى، استقبلت لسانه داخل فمها وكأنها تخلت عن كل خجلها القديم، أو كأن هذا الخجل ما هو إلا قشرة زائفة تخفي جوهرها الحقيقي حتى عنها.

أحست بمفاصلها تخونها أكثر، وحمدت الله على أنها ليست واقفة وإلا كانت قد تهاوت، في حين احتضنها هشام بقوة من دون أن تتخلى شفتاه عن شفتيها، ثم قاد يدها اليمنى ليضعها فوق عضوه الذي كان قد انتصب تماما، حاولت أن تسحب يدها من دون جدوى.. بعد قليل مددها على ظهرها فوق الفراش، خلع لها بيجامتها على عجل وفك مشبك حمالة صدرها ورماها بجوار السرير. كانت شفتاه تمتصان حلمة ثديها الأيسر بينما تعتصر يده ثديها الآخر، أما هي فكانت في عالم آخر لم تختبره من قبل، و لم تتخيل وجوده حتى.

كان على وشك أن يقوم عنها حين جذبت رأسه إليها ورفعت رأسها كي تقبله.. تناست أمها وشبح أبيها والمحاذير العديدة التي تكبلها، وتحولت إلى نمرة صغيرة تكتشف شراستها للمرة الأولى.

امتصت شفتيه بشبق مقلدة إياه، ثم أخذت تلحس وجهه بلسانها. لم تكن تعرف لمَ تفعل هذا، كانت فقط تتبع غريزتها من دون أن تفكر. على رغم أنه كان على وشك الابتعاد عنها وإنهاء الأمر عند هذا الحد

فوجئت به يهتاج أكثر كأنما مبهورًا بتحولها هذا.. نزع عنها قطعة القماش التي ما تزال ترتديها، ودخلها بقوة وهو مائل بين ساقيها المفتوحتين مستندًا بذراعيه على الفراش من الناحيتين حول جسدها.. اللحظات التالية غابت تفاصيلها عنها فيما بعد، تتذكر فقط ارتعاشها وسريان اللذة داخل جسدها، تتذكر ألمها وصرختها التي منعها بيده من الانطلاق، قبل أن ينحنى على شفتيها داعكا إياها بشفتيه كاتمًا تأوهاتها الخافتة، تتذكر أيضا بقعة الدم التي لوثت ملاءة السرير وردية اللون.

في النهاية قام عنها بهدوء، ونام بجوارها على ظهره ناظرا للسقف.

بعد قليل اعتدل جالسًا، وغطى نفسه بالملاءة، وبدأ يدخن سيجارته، وهو يختلس النظر إليها كأنما يريد التأكد من أن الجالسة بجانبه وقد عادت مصمتة ومغلقة على نفسها من جديد، هي نفسها من كانت تتأوه تحته منذ دقائق.

غادرت حجرته بهدوء، كان البيت ما يزال خاليًا إلا منهما.. دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها. كانت عاجزة عن التفكير في أي شيء آخر.

تساءلت بينها وبين نفسها هل بدأ في ترتيب حجرته وتنظيفها من آثار ما حدث بينهما بعد خروجها منها؟ هل غسل بقعة الدماء عن الملاءة؟

بعد ما يقرب من الساعة وبينما كانت هي ما تزال غارقة في خدرها، سمعت صرير عجلات سيارته وهو يغادر المكان مسرعًا كأنما يهرب من كل ما حدث.

للمرة الأولى لم تخش جميلة من غضب أبيها منها.

كانت تعامله كشخص حي. تشعر بطيفه يتبعها كظلها، تكاد تحس بأنفاسه على جلدها، بوجوده الخفي يضمها.

منذ طفولتها اعتادت على مرافقته لها، لم تشعر بالوحدة قط، كانت تخاف أن تخطئ فيمتنع عن مرافقتها. تصبح ابنة ضالة بعيدة تماما عن طفلته الصغيرة التي تركها تبكي أسفل شجرة التوت ومضى إلى حتفه. صارت لا تستطيع القبض على ملامحه.

الرجل الذي مضى من دون أن يترك صورة فوتوغرافية واحدة باستثناء الصورة الباهتة في بطاقته الشخصية القديمة أصبح كأنه لم يوجد قط، لا تتذكر لون عينيه، ملمس ذقنه النابتة لتوها، رائحة عرقه حين كان يعود بعد يوم عمل شاق، وقبل أي شيء آخر لا تستطيع القبض على صوته.. وقعه ونبراته أشياء انمحت تمامًا من ذاكرتها. حين تسأل أمها عنه لا تجيبها بما يشبع نهمها لمعرفته.

لم ترَ أشلاءه وقد تناثرت حوله غارقةً في دمائه، لم تبصر أمها وهي تصرخ وتشد شعرها وتقطع ملابسها أمام الرجال في المصنع، لم تشاهد دفنه، ولم تختبئ فوق سطح بيتهم القديم مراقبةً جنازته كعادتها مع كل الجنازات التي تعبر الطريق باتجاه المقابر الواقعة في مدخل قريتهم كأول معلم يواجه الزائر الغريب، لم تتلصص على موته كما تفعل مع موت الآخرين، إلا أنها كبرت مع كل هذه التفاصيل تُحكى أمامها مرة بعد أخرى، لدرجة خُيل لها معها أنها عايشتها كلها ورأتها رأى العين.

لم ترَ كل هذا وبالتالي لم تعترف بموته، أو على الأقل لم تقتنع به. تعاملت معه كشخص غائب لابد له أن يعود، طالت المدة أم قصرت.

ربما لهذا لم تفزع كثيرًا حين لمحت طيفه، وهي طفلة صغيرة أرسلتها أمها لإيقاد لمبة الكيروسين في البيت القديم كي لا تسكنه الأرواح. لم يكن طيفًا، كان أباها كما تعرفه إلا قليلاً، كانت تراه بالطريقة التي نرى فيها الموتى في أحلامنا، يكونون كأنهم هم في الحقيقة، لكن يبقى شيء مفقود لا ندرك كنهه تماما، غير أنه يقف كالحائل بيننا وبينهم.

كان الوقت شتاءً، وقد بدأت الظلمة تحل حين لمحتْ طيفًا يخرج من الحمام إلى الغرفة المجاورة مرتديًا جلبابًا داكنًا وفي يده عصا كالتي اعتاد أبوها أن يحملها معه دائمًا. في البدء اعتقدته لصًا تسلل إلى البيت، فخافت وفكرت أن تهرب، وعدت ناحية الباب بالفعل قبل حتى أن توقد اللمبة. خرجت ووقفت تلهث في مساحة الخلاء المحروسة بشجرة التوت الضخمة. الهواء البارد يلسع وجهها، والظلام الخفيف كثّفت غيوم السماء من حضوره، ولا أحد في الجوار، رغم أن هذا هو وقت عودة الفلاحين بمواشيهم من الحقول.

لا تعرف على وجه اليقين ما الذي دفعها للوقوف ساكنة أسفل شجرة التوت؟ غير أن ما تعرفه هو أن تلك الوقفة أعادتها للحظة معرفتها لخبر موت أبيها، أمها وهي تلقي بجرة الماء على الأرض وتصرخ، والناس الذين ظهروا فجأة راكضين تجاه المصنع، وهي ذات السنوات الست تنتحب تحت الشجرة. مرت كل هذه التفاصيل بذهنها وعيونها متشبثة ببيتهم

القديم الذي رأت ضوءًا يصدر من داخله حين انفتح بابه بلا صوت وخرج منه الطيف بهدوء متجهًا نحوها. هذه المرة تعرفت فيه على أبيها، وتذكرت كل حواديت الأشباح التي سمعت عنها، غير أنها لم تعتبره شبحًا، اعتبرت ما تمر به مجرد حلم من الأحلام التي تأتيها ليلاً رغم قلتها.

مر بجانبها فتوقف قليلاً ومسح بيده على شعرها بطريقة أعادت لها السكينة، لكن ما صدمها أنها لم تشعر بأن يدًا ما قد لمستها، رأتها فقط من دون أن تشعر بملمسها ولا بوجودها المادي. شعرت بالسكينة التي خلفتها داخلها وبالحماية التي أسبغتها عليها. نظر لها كأنما يرغب في ابتلاعها بداخله. ثم تركها ومضى في سبيله إلى أن اختفى في الظلام.

كان الخوف هو الشعور الأول الذي استولى عليها عقب انصرافه، نسيت لهفتها عليه، واشتياقها له، وفكرت فقط في أن من رأته الآن ليس أباها، ولا من الممكن أن يكون هو. لم تسمع صوته، و لم يخصها بلحظة من لحظاتهما القديمة معًا.. فقط نظر إليها ومسّد شعرها بيده.

جرت في الطريق المظلم باتجاه بيت جابر متخبطة في خوفها. كانت تبكي بصوت مسموع، تعوقها الأرض غير المستوية، وروث البهائم المتناثر من بقعة لأخرى، عثرت بحجر وانخلعت فردة شبشبها اليمنى، فخلعت الأخرى وهي تزيد من سرعة عدوها، أصبحت ككمونة بطلة الحدوتة لو حدث وفكرت في الهرب من المراكبي الضخم.

حين وصلت للبيت كانت ترتعش، حافية القدمين، ينزف إبهام قدمها اليمنى خيطًا رفيعًا من الدماء. صرخت أمها حين رأتها، نظرت في البداية

بهلع إلى البقع التي خلفتها قدماها المتسختان على بلاط الأرضية، ثم انتبهت إلى بكائها وإلى الحالة المزرية التي كانت عليها. ارتمت جميلة على بطنها فوق أول كنبة قابلتها في الصالة وهي تجهش بالبكاء. كانت الكلمات تتقافز مذعورة من فم بشرى وهي تحاول أن تفهم ما حدث لابنتها. أخذت تضرب صدرها بيدها وهي تولول، فعرفت جميلة أن ذهن أمها قد سرح بعيدًا وظنت أن أحدًا قد تحرش بها، أو حتى اعتدى عليها. كان هذا أسوأ كوابيس بشرى فيما يخص ابنتها، لذا اعتادت منذ صغرها أن تملأ عقلها بالنصائح الذهبية مثل عدم السير في الأماكن الخلاء، أو عدم الذهاب وحدها للمركز صيفًا حتى تتحاشى المرور بحقول الذرة في طريقها إلى الطريق السريع الذي يبعد عن قريتهم بستة كيلومترات. وغير ذلك من النصائح.

اعتدلت جميلة في جلستها، وقالت لأمها بصوت متحشرج من أثر البكاء: شفت أبويا في البيت.

توقعت أن تصاب أمها بالذهول أو أن تتهمها بالجنون، لكن لدهشتها وجمت بشرى قليلاً ثم سألتها بهدوء: شفتيه فين؟ وكان بيعمل إيه؟

توقفت البنت لثوانٍ محملقةً في والدتها قبل أن تجيب: خرج ورايا م البيت، وحط إيده على شعري، وبعدين سابني ومشى.

ذهلت الصبية من رد فعل أمها الواقفة أمامها المشابه لرد فعل شخص تخبره ببديهيات وليس بأمر مخالف للعقل والمنطق، نظرت إلى وجهها الجامد فلم تستبن ما وراءه. جلست أمها بجانبها وضمتها ناحيتها،

وكانت تلك أول مرة تحتضنها فيها منذ مدة لا بأس بها، ربتت بشرى على ظهر صغيرتها، فمسحت الأخيرة دموعها وسألتها:

– إنتِ شفتيه قبل كده، هو مات بصحيح ولا بتضحكوا عليا؟

ردت بهدوء: لأ ما شفتوش. قومي يللا استحمي، واتوضي واقعدي اقري قرآن وهتبقي زى الفل.

لم تخبر جميلة أحدًا غير أمها برؤيتها لطيف أبيها. ظل هذا الأمر لمدة طويلة سرها الدفين هي وبشرى، لحظة تقاسمتاها معًا كتلك اللحظات في مولد مارى جرجس وبيع الجبن والبيض في الأسواق. عادتا لحظتها تلك الأم القوية المتشحة بالسواد، والابنة الصغيرة المتعلقة بيدها.

***

على الرغم من أنها لم تعد تشعر بملازمة طيف أبيها لها كما في السابق، لم تندم جميلة قط على علاقتها بهشام. لم تعرف أبدًا هل أحبها كما أحبته أم لا؟ كان التشكك وانعدام الثقة به هما العنوان المناسب لقصتها معه، أما الندم فلم يكن أبدًا من بين المفردات التي يمكن أن تصف مشاعرها نحوه. فحتى حين اكتشفت – عبر سلمى – علاقته بتلك الفتاة الألمانية لم تشعر إلا بالغضب والإهانة، أحست كأنما فرضت نفسها ومشاعرها عليه.

(عزيزي هشام،

إزيك؟

أنا باحس لوحدي... عندي ذكريات جميلة: مصر، القاهرة: المدينة اللي أنا بأحبها، الحياة هناك..... ودلوقتي أنا سبت كل ده.. شعوري بين بلدين، ده صعبة.. بين مكانين... وأنا لوحدي مع ذكراياتي... هنا ما فيش حد يشترك شعوري، الناس عندهم حياتهم هنا... لكن في رأسي، في قلبي، في مكان تاني، مش ألمانيا... عشان كده أنا بحس لوحدي... أنا مش ألمانية بس، أنا مصرية برضو... لكن أنا لازم أفكر في المستقبل... حادور على شغل. أنا عاوزة ألقى الشغل اللي أنا ممكن استخدم اللغة العربية.. حاشوف... أنا خايفة. أنا مش عاوزة أنسى اللغة... وأنا عاوزة أروح مصر تاني (زيارة)، في السنة اللي جاية... عشان بأحب المكان... الناس ولغتهم... لكن أنا فاهمة إني مش ممكن أروح مصر بسرعة... عشانك، عشان الظروف بتاعتك... أنا مش قادرة أشوفك في مصر في السنة اللي جاية، أنا فاهمة ده.

أنا كنت قوية، هنا في ألمانيا لغاية يوم الجمعة (أول امبارح) مرة واحدة كنت حزينة جدًا، إنت وحشتني، كنت عاوزة ألمس وشك، خدك بخدي، كنت عاوزة أنام في حضنك... لكن كنت لوحدي مع دموعي... أنا بافكر كتير في الحب... أنا فاهمة إن في أنواع الحب الكتيرة... لكن في مصر وفي ألمانيا، في العالم كله، أنا ما شُفتش الحب الحقيقي كتير... الناس بيحبوا بعض عشان هم محتاجين للجنس... عشان هم مش قادرين يكونوا لوحدهم... أو عشان المجتمع، عشان ده "عادية"... أنا ما شُفتش كتير الناس اللي بيحبوا بعض عشان الحبيب نفسه، عشان الحب نفسه.

إنت عارفني، إنت عارف إني بأحب إزاي... في شعور عميق جدًا، مش ممكن يكون كتير في الحياة كده!!

أنا مش عارفة إني حأحب تاني كده.. لكن أنا مش عاوزة أقل من ده!! أنا عاوزة الحب الحقيقي... مستوى أعلى... أنا أفضل أكون لوحدي، لما مفيش الحب الحقيقي في حياتي...

أنا عارفة إن في أنواع الحب الكثيرة... أنا مش قادرة أفهم شعورك بينك وبين جميلة، ازاي واحدة تتجوز راجل مش بيحبها؟ أكيد هي عارفة إنك بس هتتجوزها عشان اللي حصل بينكم. وازاي إنت تتجوز واحدة عشان بس إنك نمت معاها؟ ده شيء غريب بالنسبة لي، ومش أقدر أفهمه. فكر مرة تانية قبل إنك تتجوزها، مش هيكون فيه حب حقيقي بينك أنت وبينها.

أنا لسه بحبك يا هشام، لكن دلوقتي أنا زهقانة من الحب... عشان الحب في حياتي صعب: إنت الراجل اللي أنا بأحبه وأنا حزينة عشان حبي... أنا لازم أبقى قوية في حياتي، لازم أبني حياتي لوحدي، بقوة... اديني قوة، يا هشام، اديني قوة حبك!... لكن أنا عاوزة صراحة... لو إنت خلصت تحبني، لازم تقولي! أنا عارفة إنك حبتني، كان فيه الحب الحقيقي بيننا... شعوري ما غيرش، وإنت؟؟

أنا حاستناك... أنا عاوزة أشوفك تاني... حأقولك برضو لو حبي خلص... لكن دلوقتي إنت لسه موجود في قلبي أكثر من إنت قادر

تتصور... إنت حبيبي... اكتب لي شعورك، الظروف عندك... اكتب لي عن مكاني في حياتك دلوقتي، مكاني في قلبك..

ما تخفش عليّ يا هشام، أنا قوية!

أنا باحبك،

كريستا

- أنت مش ممكن تبعت لي صور منك؟ أنا معنديش صور منك، شوية بس.
- أنا كلت سندويتشات كبدة مسخنة... فكرت في ميونخ، معاك في فيكتوالين ماركت).

لم تقرأ جميلة الخطاب مباشرةً، حين أعطته لها سلمى بخبث قائلةً إنها وجدته صدفة بين كتب هشام، إنما أخذته معها. في حجرتها المغلقة عليها جلست تقرأه مرة بعد أخرى، كأن تعدد القراءات سيكشف لها أسرارًا جديدة عن علاقة هشام بتلك الأخرى، لم تهتم كثيرًا بكون سلمى عبر إعطائها الخطاب أرادت أن تخبرها أنها عرفت بعلاقتها بهشام.

من بين دموعها، طالعت عينا جميلة السطور المكتوبة بعربية ركيكة وبأخطاء لا تحصى، صدمها أن هشام حكى لكريستا هذه عنها، وعما دار بينهما أكثر من صدمتها من حبه لأخرى.

يكشف الخطاب عن علاقة ممتدة بين الاثنين، هل بدأت في ألمانيا حينما سافر هناك لمدة شهر وهو في الجامعة، ثم تبعته المرأة إلى مصر؟ هل هذه

هي الفتاة التي كان يراسلها في مراهقته أم أخرى تعرف عليها عبرها؟ هل لا يحبها هشام فعلاً كما كتبت صديقته؟ أم أنه يحبها لكنه اتخذها ذريعة لإنهاء علاقة غير مرغوب فيها مع كريستا هذه؟

تساءلت جميلة بينها وبين نفسها حتى كاد رأسها ينفجر، لكن أيًا كانت إجابات أسئلتها، كانت متيقنة من شيء واحد، هو أن كرامتها جُرِحت بعمق، وأنه لا سبيل لمداواة هذا الجرح إلا أن تقرر هي ترك هشام.

أدركت أنها خدعت نفسها، حين تخيلت أنه قد بدأ يحبها هكذا فجأة. راجعت كل ما دار بينهما منذ ذلك اليوم الذي ذهبت معه هو وسلمى وهيام لشراء الملابس حتى هذه اللحظة، محاولة أن تتذكر هل أوحت له ولو لمرة واحدة بأن ما حدث بينهما فيما بعد يفرض عليه الزواج منها؟!

اختلطت التفاصيل بذهنها، وجلست على فراشها بلا حراك، بدأت تشعر بالدوخة الشديدة المصاحبة لانخفاض ضغط الدم، تلك الدوخة التي تلازمها حين تحزن، أو حين تكون مستيقظة توًا من نومها وتنهض واقفة بشكل مفاجئ.

رمت رأسها ببطء على الوسادة، ومددت جسدها، اعتادت دائمًا أن تقاوم انخفاض ضغط الدم الناتج عن نقص الهيموجلوبين لديها بالاستسلام التام له، إذا شعرت بالدوار ترقد في سريرها، وإذا استيقظت صباحًا لا تغادر السرير أو ترفع رأسها بشكل مباشر بل تظل راقدة لبعض الوقت قبل أن تقوم.

رقدت لمدة ساعة من دون أن تسقط في النوم، حين استجمعت قواها وقامت لأكل ما يساعدها على رفع ضغط دمها لمعدله الطبيعي كانت قد قررت أنها يجب أن تترك هذا البيت لتستقل بحياتها حتى لو خاضت حروبًا في سبيل ذلك.

من حسن الحظ أنها لم تكن في حاجة لخوض أية حروب. كانت نتيجة الثانوية العامة علي وشك أن تُعلن. وبمجرد ظهورها صممت على الالتحاق بكلية الآثار في جامعة القاهرة، بالرغم من أن رغبة أمها كانت أن تلتحق بأي كلية في طنطا كي تظل قريبة منها.

لم ترغب فعلاً في دراسة الآثار كانت تتمنى الالتحاق بالألسن أو اقتصاد وعلوم سياسية، غير أن درجاتها لم تؤهلها سوى للآثار.

انخرطت في الدراسة بكل حواسها كي تهرب من هشام، وكل حياتها السابقة. شيئًا فشيئًا أحبت تخصصها الجديد خاصة حين حصلت على امتياز في سنتها الأولى. تحمست كأنها تجد نفسها للمرة الأولى في شيء تقوم به. لم تكن سلمى في حاجة لإثبات شيء سواء لنفسها أو للعالم المحيط بها، أما جميلة فكانت تحركها رغبة هائلة في النسيان، ورغبة أقوى في الخروج من أسر حياتها السابقة كشخص غير مرئي، فائض عن الحاجة، ودخيل على عائلة قوية مترابطة، حتى وإن تظاهرت هذه العائلة بأنه ينتمي إليهم. كانت ترغب في ما يشبه الانتقام، غير أن انتقامها لم يكن يعني إلحاق الضرر بالآخرين، إنما فقط الارتقاء بنفسها، كي تصبح أفضل منهم.

كانت غاضبة ومهانة. وعرفت جيدًا كيف تحول غضبها إلى طاقة دفع للأمام. لكن علي الرغم من رغبتها في نسيان هشام، كانت أحيانًا – بمازوخية تدهشها– تجتر ذكرياتها معه بأدق التفاصيل. طريقته في السير، صوت ضحكته، طريقته في النطق، في تدخين سجائره. مذاق شفتيه وهو يقبلها، كل ما يخصه.

حين زارها في الجامعة، محاولاً أن يعرف سبب مقاطعتها له، لم تخبره بشيء. وقفت معه لدقائق ثم تعللت بضرورة دخولها فورًا للمحاضرة. هي لا تجيد العتاب، ولا تحبه. كان من الصعب أن تستعيد ثقتها فيه مرة أخرى. وأحست أنها على حق عندما فوجئت به تحت ضغط والده وإلحاحه يتقدم لخطبة سلمى قبل مرور سنة، لم تستمر خطبتهما إلا لعشرة أشهر؛ إذ سرعان ما فسختها ابنة رشيد ضاربة عرض الحائط بثورة عمها جابر التي وصلت حد الخصام مع أخيه لأنه لم يضغط على ابنته من أجل الاستمرار في الخطبة.

لم تكن جميلة تنصت كثيرًا إلى أمها حين تخبرها بهذه التفاصيل أثناء زياراتها لها في الشقة التي اشتراها لها جابر في المعادي، اعتادت أن تغير الموضوع، بأن تحكي هي عن تفوقها وإعجاب أساتذتها بنبوغها، وهذا بالضبط ما كان ينسي أمها أي شيء آخر في العالم.

-١٢-

ربما تكون هذه واحدة من أقدم الذكريات التي تحتفظ بها ذاكرة سلمى.

تتناول الغداء مع أبيها وأمها وهيام وخالد في مطعم يطل على النيل، لا تتذكر المدينة الموجود بها المطعم على وجه اليقين، ليست طنطا بالطبع لعدم مرور النيل بها، وليست القاهرة على ما تعتقد، لأن مدينة ذاكرتها تلك كانت غاية في الهدوء.

ربما تكون المنصورة رغم عدم تذكرها لزيارتها لها من قبل، لكنها على الأرجح ميت غمر المدينة الصغيرة على النيل.

كانت في الخامسة تقريبًا، تجلس بجوار أبيها تنظر للحبات السوداء في الطبق الذي أمامها، وتسأله: إيه ده؟

فيرد عليها: ده زتون أسود.

لا تتذكر أنها كانت قد رأته من قبل، كما لم تكن قد تناولت أي "مخللات" أو حوادق لأن أمها كانت صارمة للغاية في منع أبنائها من تناولها.

وضعت حبة زيتون في فمها مبهورة بطعمه اللذيذ، التهمتها فورًا، والتقطت أخرى، وهي تسأل أباها السؤال نفسه:

- وإيه دي؟

فيرد وهو يأكل:

- دي زتونة.

ربما لم تأكل أي شيء بخلاف الزيتون يومها، لكن ما تتذكره جيدًا، أنها مع تناولها لكل حبة كانت توجه السؤال ذاته لأبيها، والأغرب أنه كان يجيبها كل مرة دون أي نفاد صبر.

حين يمر ذلك المشهد القديم بخاطرها يكون مغلفًا بضباب النسيان الذي يحاصره لدرجة تخفي الكثير من معالمه، تختفي مثلاً أمها بملابس خروجها السوداء وخجلها الريفي الذي يزيد كلما حدثت مواجهة بينها وبين المدينة، تختفي أطباق الكباب، والكفتة التي كانت موضوعة على الطاولة، ولا يبقى إلا طبق الزيتون وأسئلتها وإجابة أبيها التي لم تتغير.

يتبقى أيضًا النيل ووقفتهم أمامه لبعض الوقت بعد خروجهم، وانبهارها الطفولي بأشجار "الفيكس نتدا" التي ملأت شوارع تلك المدينة بأشكالها

الدائرية والمثلثة، أصف انبهارها الطفولي لأنها لم تكره شيئًا حين كبرت كما كرهت هذا النوع من الأشجار.

حين حكت هذه الواقعة لظيا في فترة الوئام بينهما، اعتبرها دليلاً مبكرًا على بحثها عن التفرد بين المتشابهات!! في حين رآها أصدقاء آخرون علامة واضحة على غباء متأصل منذ الطفولة كما أخبروها ضاحكين.

الآن كفت سلمى عن استعادة هذه الذكرى، وإعادة حكيها للآخرين. لم تعد راغبة في الحكي أو الكلام الذي طالما أحبته وانحازت له ضد الصمت. تكتفي فقط بإغماض عينيها والتحليق في ملكوت خاص.

صارت تغمض عينيها كثيرًا. تغمضهما فتغرق في فردوسها الملون بألوان قوس قزح. تظهر الألوان المتعددة في البداية، لكنها ومع استمرار الإغماض تتداخل الألوان مع بعضها البعض، ثم تتحول إلى اللون الوردي. تصبح الجنة بالنسبة لها هي بستان خوخ وقت إزهاره، حين تتحول الأشجار الرقيقة بأكملها للوحة وردية اللون هي الزهور مؤطرة ببراعم زاهية الخضرة هي الأوراق. تفكر سلمى في أن الصينيين القدماء حكماء جدًا، وإلا كيف اختاروا لليوتوبيا كما تخيلوها في حكايتهم القديمة اسم "أرض أزهار الخوخ"؟ (١٢)

(١٢) الإشارة لحكاية تقليدية صينية عن أرض تحمل الاسم نفسه، وهي عبارة عن مكان منعزل عن العالم، يخلو من الطبقات الاجتماعية والسياسة والحروب.

غير أنها لا تبحث عن يوتوبيا. ترغب فقط في بعض السكينة. "أرض أزهار الخوخ" في الحكاية الصينية مكان معزول عن العالم بعيد عن شروره، وهنا حيث توجد الآن مكان معزول هو الآخر، لكن العزلة لم توفر لها السكينة أو الهدوء.

في أعماقها لم يكن هناك سوى جحيم من الأفكار المتضاربة، والتخيلات والهواجس التي لا تستطيع التفريق بينها وبين حياتها الواقعية.

في ليلتها الأخيرة في بيت أبيها حلمت سلمى أنها تلمس نابا في فكها الأسفل فإذا به ينخلع في يدها. ظل قابعا في كفها وهي تتفحصه باهتمام، حرّكته بسبابتها فأبصرت بقعة دم تغطى أسفله.

حين استيقظت لم تتذكر الحلم مباشرة. برق في ذهنها فقط بينما تغسل أسنانها أمام المرأة. تعرف أن فقدان المرء لأحد أسنانه نذير شؤم، غير أنها ليست متيقنة من التفسير الدقيق لهذا.

اتجهت مسرعةً إلى غرفتها، فتحت كتاب تفسير الأحلام الكبير للإمام محمد بن سيرين الموضوع فوق الكومود المجاور لفراشها، تفحصت الفهرس لبرهة قبل أن تفتح على الصفحة التي تريدها.

قرأت أن سقوط السن الواحدة من غير معالجة، وذهابها بمجرد سقوطها، يعنى موت المريض من أهل البيت، أما إذا أخذها الحالم بيده أو صرها في ثوبه، "فانظر في حاله، فإن كان عنده حمل جاءه ولد على قدر جوهر السن ومكانها، وإلا صالح أخًا أو قريبًا كان قد قطعه. وإن كان هناك دم، فإن ذلك إثم القطيعة للرحم"!!

للمرة الأولى لم تهتم سلمى كثيرًا بتفسير تقرأه لحلم ما، تجاهلت ما قرأته واتجهت إلى درج التسريحة، أخرجت منه الأوراق التي نحّتها جانبًا صباح اليوم الذي أحرقت فيه صندوق أبيها، ومعها صور خالتها لولا. أمسكت أوراق أبيها والخطابات الموجهة إليه، وهي تفكر مترددة، خشيت أن تتركها فتقع في يد هيام أو خالد. لو كان والدها يرغب في إطلاع أيهما على محتويات الصندوق، لكان أعطاه مفتاحه بدلاً منها.

عندما قرأت الخطابات، وتفحصت باقي الأوراق في الصندوق، اندهشت كثيرًا من السبب الذي دفع والدها لمنحها المفتاح. كان يمكنه أن يطلب منها إحراق الصندوق الخشبي وهو مغلق، لم يكن مضطرًا لكشف نفسه أمامها لهذه الدرجة.

وضعت الخطابات والأوراق والصور في حقيبة يدها الضخمة ومعها المسودات التي تكتبها. حزمت حقيبة السفر، وقد قررت أن تعود لشقتها في القاهرة. لم توفر لها الإقامة في بيت والدها السكينة التي أملت فيها، ضاقت كثيرا بالأحاديث الهامسة بين أمها وعمتها نظلة، بالصخب الذي تخلفه هيام هي وأولادها، وبالضجيج القادم من المصنع الذي أسسه أبوها قبل وفاته مباشرة.

أدركت أن السكينة الحقيقية يجب أن تنبع من داخلها وليس من الواقع المحيط.

في اليوم التالي، لوصولها لشقتها في القاهرة، كتبت إيميلاً أخيرًا لظيا. أخبرته فيه أنها تتفهم سبب تجاهله لرسائلها له، وأنها ستمتنع عن إرسال أي رسائل جديدة.

أخذت نسخة من مسودة الرواية التي كتبتها، واتجهت بها إلى شقة "جميلة" في المعادي. أعطتها لها، وظلت هناك لنصف ساعة فقط. ثم خرجت مسرعة. كانت مرتبكة فسارت لمدة لا تعرف مداها، حتى وصلت إلى الكورنيش. كانت تعبر الطريق عندما فوجئت بجسدها كأنما يطير في الهواء قبل أن يسقط مرتطمًا بالأرض، كانت ملقاة في الشارع، تشعر بأصوات متداخلة تتقافز من حولها، وطنين متواصل يضغط على أذنيها، ثم بدأت الظلمة تزحف على عينيها شيئًا فشيئًا.

يمر الوقت وهي مغمضة العينين لا تدركه، تحس بمروره فقط من تغير وقع الضجيج الذي يضغطها، ومن تلاشي الأصوات المتداخلة تمامًا، ثم عودتها على استحياء ثم تلاشيها من جديد.

حين انفتحت عيونها – كأنما رغمًا عنها– ذات مساء، وجدت نفسها مشدودة إلى سرير معدني بارد في غرفة ضيقة مشبعة برائحة الأدوية والمطهرات.

في مواجهتها تجلس طبيبتها بابتسامتها المتوجسة. كانت عاجزة عن الكلام.. فمها الجاف مسكون بمرارة الأدوية، وجسدها يؤلمها في أكثر من موضع. حين أبصرت ساقها اليمنى الموضوعة في الجبس بدأت تدرك ما فاتها.

صدمتها عربة مسرعة، على كورنيش المعادي بعد أن خرجت من شقة جميلة. لكن ما الذي أحضر طبيبتها النفسية إلى هنا؟

قالت للطبيبة إنها متعبة وتخاف ألا تستطيع السير مرة أخرى، فطمأنتها على أن الكسور التي تعرضت لها لن تؤثر عليها كثيرًا وأنها ستعود للسير بشكل طبيعي بعد شهرين على الأكثر، "شوية علاج طبيعي وكل حاجة هتبقى تمام، الدكتور قال لي كده" تلك كانت الجملة الوحيدة تقريبًا التي تأكدت سلمى أن طبيبتها نطقت بها فعلاً.

لم تفهم بعقلها المضطرب: لماذا تتعامل معها بهذا اللطف المبالغ فيه؟ لماذا لا تأخذ كلامها أبدًا على محمل الجد؟ تفهم ألا تقتنع إذا حكت لها عن الأصوات التي تسمعها تتردد من حولها تهمس في أذنها بأفكار شريرة، وتحاصرها بضحكات شرسة، لكنها لا تفهم كيف لا تراها على حقيقتها بدون رتوش أو تهويمات؟

تجلس الطبيبة في مواجهتها هادئة تقلِّب قنوات التليفزيون من دون أن تتابعها فعليًا، وتتشاغل بالنظر ناحية النافذة لبعض الوقت قبل أن تسأل سلمى: بالمناسبة مين بدر الهبلة؟ اللي كنت بتتكلمي عنها قبل ما تفوقي، ليه ما حكيتليش عنها قبل كده؟

لم ترد سلمى عليها، كانت فقط تنصت لصوت ارتطام جنزير قديم يكبل ساق بدر بدرجات سلم بيت العائلة وهي تصعده زاحفة.

المؤلفة في سطور

- منصورة عز الدين كاتبة مصرية ولدت عام ١٩٧٦ وبدأت نشر نصوصها في المجلات والجرائد المصرية والعربية منذ كانت في العشرين من عمرها، صدر لها من قبل مجموعة قصصية بعنوان "ضوء مهتز"، ورواية بعنوان "متاهة مريم"، وقد تُرجمت قصصها القصيرة وروايتها الأولى إلى لغات أجنبية عدة، كما شاركت في العديد من المهرجانات والمؤتمرات العالمية والعربية.

- تعمل عز الدين منذ ١٩٩٨ كمحررة بجريدة "أخبار الأدب"، وتشرف حاليا على صفحات الكتب بالجريدة.

Email adc ress:

mansoura_ezeldin@yahoo.com